ملخص البحث

يبرز البحث بلاغة الآيات التي تحدثت عن قصة أم موسى عليه السلام، في سورتي طه والقصص، ويقوم هذا البحث على جانب تنظيري وآخر تطبيقي.

فالجانب التنظيري بينت فيه مفهوم القصة من الناحية اللغوية والفنية، مبرزاً مزية القصة القرآنية على غيرها، وسر تكرارها.

أما الجانب التطبيقي فيقوم على تحليل الآيات الواردة في قصة أم موسى، وإبراز إعجازها وأغراضها، وتنوع أساليبها حسب المقام الذي وردت فيه مبينًا أن قصتها عبارة عن مفاجآت متوالية تبدأ هادئة ثم تتصاعد ثم يأتي الفرج من عند الله تعالى.

ونظراً للتفصيل الوارد للقصة في سورة القصص؛ لأنها شملت ما في سورة طه وزيادة، كان لها النصيب الأوفى في هذه الدراسة دون إغفال ما ورد في سورة طه، ولأن سورة القصص تميزت بالتفصيل، بينما سورة طه تميزت بالإيجاز.

وسر ذلك –فيما أحسب– يرجع إلى أن الحديث في سورة القصص كان مع أم موسى، بينما في سورة طه كان الحديث عنها في سياق المنن التي منَّ الله بها على موسى –عليه السلام–، وهذا ما بينته في الموازنة بين السورتين، ثم ختمت البحث مبرزاً أهم نتائجه.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

Summary

The research highlights the eloquence of the verses that talked about the story of Umm Musa, peace be upon him, in the Surah Taha and the stories, and this research is based on an theoretical and practical side.

The theoretical side showed the concept of the story from a linguistic and technical point of view, highlighting the merit of the Quranic story over others, and the secret of its repetition.

As for the applied side, it is based on an analysis of the verses mentioned in the story of Umm Musa, highlighting its miracles and its purposes, and the diversity of its methods according to the place in which it was mentioned, indicating that her story is a series of successive surprises that start calm, then escalate, and then the relief comes from God Almighty.

In view of the detail contained in the story in Surat Al-Qasas, because it included what was in Surat Taha and Ziadah, she had the fullest share in this study without losing sight of what was mentioned in Surat Taha, and because Surat Al-Qasas was distinguished in detail, while Surat Taha was characterized by brevity.

And the secret of that - in what I reckon - is due to the fact that the hadith in Surat Al-Qasas was with Umm Musa, while in Surat Taha the hadith was in the context of mann that God granted Moses - peace be upon him - and this is what I showed in the balance between the two surahs, then I concluded the research Highlighting its most important results.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمدٍ، وعلى آله وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

فالقصة بشكل عام لها أَثر في حياة الناس، فهم يقبلون عليها لما فيها من تسلسل للأحداث وتتابع وتناسق لها؛ الأمر الذي يكون داعيًا للإقبال عليها بشغف ودون ملل، بعكس الأساليب الأخرى، وإن كان لها تأثيرها في مجالها.

والقصص القرآني وسيلة من وسائل الدعوة، لتربية النفوس، وإقامتها على الطريق المستقيم، فهو دعوة للاعتبار والعظة، يقول ربنا عز وجل: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (يوسف ١١١).

وقصص القرآن هو القصص الذي أخبر به الله في القرآن عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة.

هذا وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار، وتتبع آثار كل قوم، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه، وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق.

ولذلك فإن التأمل في القصص القرآني ودراسة ألفاظه وتراكيبه، وما لها من دلالات وما فيها من تصوير يقتضي من الباحث حسن النظر، ودقة التدبر.

ولا شك أن البحث يشرف بموضوعه وغايته، والتأمل في القصص القرآني من أشرف الموضوعات، وغايته من أسمى الغايات، فما أحوجنا أن نتمعن في قصص القرآن؛ لنأخذ منه العبر والدروس والعظة.

وقصة موسى -عليه السلام- تكررت في القرآن كثيراً، وهي من أعظم قصص الأنبياء، ومن القصص التي تحتاج إلى كثير تأمل «حديث القرآن عن أم موسى» خاصة أنها تحوي في داخلها قصصًا لشخصيات متعددة، فقد وردت في سورتي طه والقصص بأساليب منوعة، وطرق متعددة، والذي دعاني لاختيار هذا الموضوع (بلاغة حديث القرآن عن قصة أم موسى) أنه لم يفرد بدراسة مستقلة تبرز ما فيه من خصائص بلاغية، وأسرار بيانية، تجلي خصائص النظم القرآني في تلك القصة، وإنما ذكرت ضمن الحديث عن بلاغة السورة بشكل عام، دون تخصيص يبرز ما ذكرته آنفاً.

وقد بنيت هذه الدراسة على مقدمة ومبحثين أحدهما: تنظيري، والآخر: تطبيقي.

أما الجانب التنظيري، فيشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: مفهوم القصة في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: تكرار القصة القرآنية.

وأما الجانب التطبيقي، فيشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: بلاغة حديث القرآن عن أم موسى في سورة القصص.

المطلب الثاني: موازنة بين سورتي طه والقصص.

ولعله كان لزاماً أن يُفرد الحديث عن قصة أم موسى في سورة طه، كما أفرد في سورة القصص، لكن رأيت أن الأنسب أن يكون الحديث عنها مع الموازنة، حتى لا يكون هناك تكرار في ذلك.

وقد اعتمدت في بحثي على مصادر متنوعة، تشمل كتب التفسير في القديم والحديث، بالإضافة إلى المراجع البلاغية، وبعض الكتب التي تعنى بدراسة القصة في القرآن الكريم، وقد تأملت في هذه القصة العظيمة مسترشداً بأقوال المفسرين كاشفاً أسرار التعبير – قدر الاستطاعة – في نظم القصة التي هي مملوءة باليقين بوعد الله عز وجل.

وقد اتبعت في هذا البحث المنهج التحليلي، وهذا الجهد الذي قمت به جهد بشري يعتريه ما يعتريه من نقص هو من سمة البشر، ولا أزعم أنها استوفت دقائق هذه القصة وأسرارها، وقد بذلت جهدًا، فإن كان من صواب فهو من توفيق الله وأستغفر الله عما وقع من زلل أو خطأ، أو تحميل كلام ربنا ما لا يحتمل، ويبقى هذا القرآن سخي المورد لمن تأمله وتدبره، والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول: **الجانب التنظيري**:

المطلب الأول: مفهوم القصة في القرآن الكريم.
المطلب الثاني: سر تكرار القصة القرآنية.

المطلب الأول: مفهوم القصة في القرآن الكريم:

قبل الحديث عن القصة في القرآن الكريم لابد أن نتعرف على مفهوم القصة بشكل عام، وهذا يتضمن تعريف القصة لغة، واصطلاحًا.

فأما عن مفهوم القصة لغةً: فالقصُّ فعل القاصّ إذا قص القصص والقصة معروفةٌ، ويقال: في رأسه قصة يعني الجملة من الكلام، ونحوه قوله –تعالى–: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ (سورة يوسف، ٣)، أي نبين لك أحسن البيان والقاص الذي يأتي بالقصة من فصها... ويقال: قصصت الشيء إذا تتبعت أثره شيئًا بعد شيء ومنه قوله –تعالى–: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾ (سورة القصص، آية: ١١)، أي: اتبعي أثره، والقُصَّة الخصلة من الشعر... والقصة الخبر، وهو القصص، وقصَّ علي خبره يقصه قصًّا... والقصصُ الخبر المقصوص بالفتح وضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه... وتقصَّصُ الخبرَ تتبعه، والقصة الأمر والحديث، واقتصصت الحديث رويته على وجهه، وقصَّ عليه الخبر قصصًا... يقال: قصصت الرؤيا على فلان، إذا أخبرته بها... والقص البيان، والقصص بالفتح الاسم، والقاص الذي يأتي

بالقصة على وجهها، كأنه يتتبع معانيها وألفاظها، وقصَّ آثارهم يقُصَّها قصًّا، وقصصًا، وتقصصها تتبعها بالليل، وقيل: هو تتبع الأثر، أي: وقت كان، قال -تعالى-: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ (سورة الكهف، آية: ٦٤)، وكذلك اقتص أثره، وتقصص ومعنى فارتدا على آثارهما قصصًا، أي رجعا من الطريق الذي سلكاه يقصان الأثر أي يتبعانه، قال الأزهريُّ: القص اتباع الأثر، ويقال: خرج فلان قصصًا في أثر فلان، وقصًّا وذلك إذا اقتص أثره وقيل القاص يقص القصص لإتباعه خبرًا بعد خبر، وسوقه الكلام سوقًا[١].

وقَصَّ أثره تتبعه من باب رد، واقْتَصَّ أثره، وتَقَصَّصَ أثره والقِصَّةُ... وقد اقْتَصَّ الحديث رواه على وجهه، وقَصَّ الحديث رواه على وجهه، وقَصَّ عليه الخبر قَصَصاً، والاسم أيضا القَصَصُ بالفتح وضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه و القِصَصُ بالكسر جمع القِصَّةِ التي تكتب[٢].

والذي يقص الخبر يسمى قاصاً، والقصاص: القاص للقصة، التي تكتب، والجملة من الكلام والحديث والأمر والخبر والشأن وحكاية نثرية طويلة تستند من الخيال إلى الواقع، أو منهما معاً، وتبنى على قواعد معينة من الفن الكتابي محدثة[٣].

ومن خلال تتبع المعنى اللغوي لمادة قص يتبين لنا أنها تدل على التتبع، ورواية الأخبار، وسرد الأحداث.

القصص اصطلاحاً:

مفهوم القصة في الأدب اصطلاحًا:

قبل الحديث عن القصة في القرآن الكريم لابد من معرفة مفهوم القصة في الاصطلاح الفني.

والباحث عن مفهوم هذا المصطلح يجد أن هناك تعاريف متعددة للقصة، فهي في نظر أحدهم: "طريقة تعبر عن الحياة أو بعض منها وذلك بتناول واقعة واحدة أو عدد من الوقائع يكون بينها ترابط، على أن يكون للقصة بداية ونهاية"[٤]، ويتضح مفهوم القصة في الأدب فيما يلي:

- القصة هي: "أحدوثة شائقة مروية أو مكتوبة يقصد بها الإمتاع، أو الإفادة، وليس لها تحديد واضح، ولا مدلول خاص في المعاجم القديمة سوى أنها الخبر المنقول شفوياً أو خطياً، وسوى أن القصاص هم الذين يقصون على الناس ما يرق قلوبهم"[٥].

وقيل: "هي عرض لفكرة مرت بخاطر الكاتب، أو تسجيل لصورة تأثرت بها مخيلته، أو بسط لعاطفة في صورة، فأراد أن يعبر عنها بالكلام؛ ليصل بها إلى الأذهان... محاولاً أن يكون أثرها في نفوسهم مثل أثرها في نفسه"[٦].

(١) ينظر لسان العرب ٧٣/٧.
(٢) ينظر مختار الصحاح ٥٦٠/١.
(٣) ينظر المعجم الوسيط ٧٤٦/٢. وينظر المرأة في القصص القرآني ٥.
(٤) الأهداف التربوية في القصص القرآني٦٧.
(٥) المعجم الأدبي ٢١٢.
(٦) التعبير الفني في القرآن ٢١٥.

وقيل: إنها "استحضار صورة حية للأحداث التي اتخذها الكاتب ونقلها قراءة أو سماعاً أو مشاهدة إلى الناس"(١).

وتعرف القصة أيضاً بأنها: "حكاية تعتمد على السرد والوصف وصراع الشخصيات بما ينطوي عليه ذلك من تخلل عنصر الحوار لهذا الجدل الدائر بين الأشخاص والأحداث"(٢).

وبعضهم قال: إنها "فن درامي أداؤه اللغة، قد يتخلله حوار ولكنه لا يقتصر عليه"(٣).

ولعل من أجمع تعريفات القصة اصطلاحًا ما قيل عنها: "حكاية تروى بالنثر وجهاً من أوجه النشاط والحركة في حياة الإنسان، ولون من أنواع الإبداع الفني الذي يعتمد أساساً على أحداث تؤدي إلى ظهور عقدة، أو مشكلة تحتاج إلى حل أو ما يشبه الحل، على أن يكون لها بداية ونهاية"(٤).

مفهوم القصص القرآني:

القصة القرآنية لاشك أنها تغاير القصة الأدبية، ولا يمكن أن نطبق عليها الشروط التي وضعها النقاد للقصة الأدبية، وإن كانت تلتقي معها في بعض العناصر؛ لأنها ليست الحاكم عليها.

وذلك لأنها وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة التي تهدف إلى إبلاغ الدعوة وتثبيتها.

والقصص تعنى بمعرفة أحوال السابقين، وما كانوا عليه من صفات وأخلاق، وبعض من أحوالهم المأثورة ووقائع أيامهم المشهورة أخذًا للعبرة وتنبيهًا للعظة(٥).

وحينما ننظر إلي المعنى اللغوي للقصة، نجد أن أصل اشتقاقها يتلاقى مع المفهوم الذي قام على أصل التسمية للقصص القرآني، ومدلول القصة في اللغة هو: الحكاية عن خبر وقع في زمن مضى، لا يخلو من بعض العبر "وقص أثره قصا وقصيصا تتبعه، والخبر أعلمه"(٦)، وكلمة (قصة) مستعملة في عدة مناسبات في القرآن الكريم؛ حسب دلالتها المتنوعة التي تنسجم مع هذه المناسبات (٧)، قال الله تعالى في حديث أم موسى مع أخته: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾ (سورة القصص من الآية ١١)، أي تتبعي أثره لتعلمي خبره، وفي قصة موسى مع فتاه﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ (سورة الكهف من الآية ٦٤)، أي يريد أنهما

(١) دراسات وصور في آداب القصة ٣١.
(٢) عن اللغة والأدب والنقد ١٧٧.
(٣) محاضرات في الأدب والنقد٣.
(٤) الأهداف التربوية في القصص القرآني ٦٨.
(٥) ينظر جواهر الأدب ٢٢/٢.
(٦) القاموس المحيط ص٨٠٩.
(٧) بحوث في قصص القرآن٤١- ٤٢.

عادا يتتبعان آثارهما حتى ينتهيا إلى المكان المنشود لهما.

وفي قصة يوسف مع إخوته يقول –جل وعلا–: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ (سورة يوسف، ٣).

والمعنى: "نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص بإيحائنا إليك، والمراد بحسن الاقتصاص أنه اقتص على أبدع طريقة وأعجب أسلوب، ألا ترى أن هذا الحديث مقتص في كتب الأولين، وفي التواريخ، ولا ترى اقتصاصه في كتاب منها مقارباً لاقتصاصه في القرآن، وإن أريد بالقصص المقصوص فمعناه نحن نقص عليك أحسن ما يقص من الأحاديث، وإنما كان أحسنه؛ لما يتضمن من العبر والنكت والحكم والعجائب التي ليست في غيرها، والظاهر أنه أحسن ما يقتص في بابه"(١).

هذا والقصة في القرآن الكريم أحداثها واقعية وأخبارها صادقة، تعرض ما يقتضي السياق عرضه، وتسكت عما يستغنى عنه، ولا داعي لذكره؛ إذ هدفها أعلى وغايتها سامية.

كما أنه يتضح لنا أن مفهوم القصة في القرآن الكريم يحدده ما ورد من أنباء خاصة سيقت على وجه العبرة للمصدقين، والردع والزجر للمكذبين الضالين، فهي تارة توجه الأولين إلى الثبات على الحق، وأخرى تحثهم على الاستزادة من عمل الخير والبر، كما تصرف المتهيئ من المكذبين عن الباطل والشر بأنواعه بقدر ما فيهم من استعداد وتهيؤ، وهي محدودة في الدائرة التي علم الله –سبحانه– حاجة العباد إلى الأنبياء مع أقوامهم وغيرهم، وكذلك أنباء غير الأنبياء في تلك الدائرة وبقدر الحاجة(٢).

وعلى هذا فإن القصص القرآني إنما يعتمد على الواقع لا الخيال المستمد من الأساطير أو الإسقاطات الذاتية؛ فالقصص القرآني إنما هو من قبيل الأنباء أي الأخبار التي بَعُدَ بها الزمن، واندثرت أو كادت تندثر، ولهذا سماها القرآن من أنباء الغيب، قال –تعالى–: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ (سورة آل عمران آية: ٤٤)، وهو حق لا ريب فيه، فهو صدق كله لا ينبغي أن يرتاب فيه مرتاب أو يشك فيه شاك، فالقصص القرآني هو: "أنباء وأحداث مصدرها الواقع، لم يلعب بها الخيال، ولم تلتبس بشيء منه، ولم يدخل عليها غير الواقع، فهي حق نزلت من عند الحق، كما اشتملت على ما لم يشتمل عليه غيرها من أنواع القصص من الإثارة، والتشويق، وامتلاك الشعور، وجذب الوجدان، وتحقق الأهداف التربوية الإسلامية في النفس البشرية"(٣).

لذا اكتسب القصص القرآني قدسيته من قدسية القرآن الكريم، فالقرآن الكريم حق لاشك فيه؛ وقصصه كذلك، وهو يكشف اللثام عن

(١) تفسير الكشاف ٤٤١/٢.

(٢) ينظر الأهداف التربوية في القصص القرآني ٧٠.

(٣) الأهداف التربوية في القصص القرآني ٧١.

الأمم السابقة للأمم الحاضرة على وجه العبرة والعظة حتى لا يصيبهم ما أصابهم.

ويتضح خلال قراءة نصوص القرآن أن هذا القصص القرآني «أسلوب دعوة يتجاوز في رسم شخصياته وعرض أحداثه كل مقياس تقاس به الفنون»[١]، فالقصة الأدبية قد تكون من واقع خيال المؤلف، ومن نسج تصوراته، لكن القصة في القرآن الكريم أسمى وأجل؛ لأنها تحكي أحداثا واقعية، وتسرد أخبارا حقيقية؛ لما تحمله من أساليب الإثارة والتشويق، وجذب الانتباه، ولفت الأنظار، فضلا عن قيمها الأخلاقية، ومعانيها التربوية.

ولما كانت كذلك اهتم القرآن الكريم بالقصة؛ لأنها من أهم الوسائل في التأثير على النفوس.

ومما يلاحظ في القرآن الكريم تكرار القصص وهو ما سنتحدث عنه في المطلب التالي –بإذن الله تعالى–.

المطلب الثاني: سر تكرار القصة القرآنية:

لقد بحثت قضية التكرار من قبل و أشار إليها المفسرون والباحثون في الدراسات القرآنية، ويطلق التكرار بمعنى ذكر الشيء مرة بعد مرة، وأكثر ما يتحقق في ذلك المفهوم أن يُعاد ذكر الشيء بلفظه أو مرادفه من غير أن يكون هناك جديد في الإفادة، وهذا المعنى لا يتحقق في القصص القرآني الكريم، بل لا يمكن أن يتحقق أو يكون[٢].

والذي يتصفح القرآن الكريم يجد أنه ليس هناك تكرارٌ في القصص القرآني بالمعنى السابق، وإنما هو ذكر للقصة بطرق مختلفة؛ لأن القصص القرآني كله قصص هادف إلى تحقيق قيم، وأهداف تربوية، يعالج من خلالها النفوس، وقد يتكرر اللفظ أو الجملة لغرض التوكيد كقوله –تعالى–: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٤﴾ (سورة الحاقة الآيات: ١-٤).

ولا شك أن التكرار من الوسائل التربوية؛ لتأكيد المبدأ، وترسيخ المعتقد، والتأثير؛ لذا يؤكد البلاغيون أن التكرار "أحد أنواع الإطناب يأتي في تقديرهم للإنذار والردع كما يأتي ليدل على الأسلوب المعجز"[٣].

وقد تنوع قصص الأنبياء في القرآن الكريم، فذكر قصة نوح عدة مرات بالإطناب أحياناً، وبالإيجاز أحياناً، وذكرت قصة إبراهيم عدة مرات وغيرها من القصص، وهدف القصص

(١) القصص القرآني بين المفسرين والقُصاص ١٤٢.

(٢) ينظر بحوث في قصص القرآن ١٨٠.

(٣) روائع الإعجاز الفني في القصص القرآني ١٦٣.

القرآني من التكرار هو: تعدد العظات والعبر، وفي قصة إبراهيم –عليه السلام– مثلاً معان مكررة، وألفاظ مرددة، ومنها يتبين أنه لا تكرار فيها مطلقاً "ولكن حكمة العليم الخبير تعالت كلماته اقتضت ذكرها متفرقة الأجزاء في مواضع؛ لتكون عبرة بجوار خبرها في القصة، ولو اجتمعت في مكان واحد، لاختلطت العبرة بالقصة الخبرية، وما تميزت كل عبرة تمييزاً يجعلها كوناً مستقلاً مقصوداً بالذات"(١).

أما التكرار مع التلوين في القصص القرآني، فهو أسلوب من أساليب التعليم، وطريقة من الطرق التي اتبعها القرآن، وهي التعبير عن معنى معين أو قضية معينة بعبارات، وإثباتها بوجوه متعددة، ولقد ذكرت قصة موسى –عليه السلام– في ثلاث عشرة سورة "ولا شك أن هذا النوع من الأسلوب يهدف إلى تدعيم المعاني، وتأكيدها في القلوب"(٢)، فالقصة إذا أعيدت في موضع فهي لفائدة خلت عنه في الموضع الآخر.

"إن إعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحدا... من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة وتبين البلاغة"(٣) فهي تعاد بأساليب مختلفة.

فالغافل الذي لا يستيقظ إذا دعي مرة، ربما استيقظ إذا دعي أكثر من مرة،؛ ولذا كان من لطائف القرآن الكريم أن القصة الواحدة تذكر في سور متعددة، ولكنها تختلف في كل سورة عن الأخرى، بل في كل آية عن الأخرى، حتى إن المؤرخ إذا أراد أن يستمد من الكتاب العزيز قصة نبي من الأنبياء، فإنه يتحتم عليه أن يتتبعها في جميع السور آية آية، وأن يتعمق في فهم الآيات المتقاربة في ألفاظها؛ لأنها على تقاربها تشير إلى معان مختلفة، وأهداف متنوعة(٤).

وجملة القول: "إن التكرار الذي وقع في كثير من قصص القرآن الكريم، يرجع إلى تميز الأسلوب القرآني بجودة الفصاحة والبيان والصياغة الباهرة للألفاظ المنتقاة في دقة وإحكام، والهدف من التكرار تثبيت الحجة، وترسيخ الهدف المنشود، وعرض القصة الواحدة في أنماط متعددة من النظم القرآني بين الإطناب والإيجاز؛ لذا فالقصة التي ذكرت أكثر من مرة في كتاب الله، كانت ذات صلة وثيقة بقضية الدعوة، والدعاة إلى الله تعالى"(٥).

أما التي ذكرت مرة واحدة فمع سمو الحقائق التي قررتها، وما فيها من قواعد كثيرة في الاجتماع والتربية، إلا أنها لم تكن تتحدث عن مجال الدعوة، وعما كان بين الأنبياء– عليهم السلام – وأممهم، وما لاقاه هؤلاء من أولئك، إنما كانت في مجالات اجتماعية وجوانب إنسانية، وقيم خلقية، وأهداف سامية، تمد العلماء بقبس لا يخبو؛ لذلك اكتفي بذكرها مرة

(١) المعجزة الكبرى القرآن ٢٠٠.

(٢)تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية ٢٧.

(٣) إعجاز القرآن ٦٢.

(٤) ينظر تاريخ الأنبياء ٢٨–٣٠.

(٥) الأهداف التربوية في القصص القرآني ٩٦.

واحدة؛ لأنها تؤدي الغرض الذي سيقت من أجله [١].

يقول الرافعي مبيناً بعض أسرار التكرار " الذي يجيء في بعض آيات القرآن فتختلف في طرق الأداء، وأصل المعنى واحد في العبارات المختلفة، كالذي يكون في بعض قصصه، لتوكيد الزجر والوعيد، وبسط الموعظة، وتثبيت الحجة ونحوها"[٢].

ومن حكمة تكرار القصص إجمالًا ما يلي:

بيان بلاغة القرآن في أعلى مراتبها، وأسمى غاياتها، فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة، والقصة المتكررة ترد في كل موضع بأسلوب يتمايز عن الآخر، وتصاغ في قالب غير القالب، ولا يمل الإنسان من تكرارها، بل تتجدد في نفسه معان لا تحصل له بقراءتها في المواضع الأخرى؛ لأنه يحس ويدرك فوائد جديدة.

قوة الإعجاز: فإيراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ في التحدي، وأي بلاغة أعظم من بلاغة القرآن الكريم، تورد المعنى الواحد بأساليب مختلفة، وصور متعددة، فإيراد القصة على هذه الطريقة مع عجز العرب البلغاء عن الإتيان بمثل ذلك، يكون أروع في النفس من الناحية الإعجازية.

الاهتمام بشأن القصة لتمكين وترسيخ عبرها في النفس: فإن التكرار من طريق التأكيد وإمارات الاهتمام، كما هو الحال في قصة موسى مع فرعون؛ لأنها تمثل الصراع المرير بين الحق والباطل أتم تمثيل، ونتيجة هذه القصة، أن دفع الباطل وسطع نجم الحق، مع العلم بأن القصة لا تتكرر في السورة الواحدة مهما كثر تكرارها.

اختلاف الغاية والمقصد اللذين تساق من أجلهما القصة، فيجدها المرء تذكر بعض المعاني الوافية بالغرض المقصود في المقام المناسب، وتبرز معاني أخرى في سائر المقامات بالنظر إلى ما تقتضيه الأحوال، وما يتطلبه الموقف[٣].

والتكرار في القصص القرآني فيه تنويع للمشاهد؛ لتحقيق أغراض معينة

وبذلك يتبين لنا أن القصص الذي ذكر أكثر من مرة في كتاب الله لا نجد منه قصة واحدة ذكرت في سورتين اثنتين بطريقة واحدة، بل نجد كل قصة جاء فيها ما لم يجيء في الأخرى، ففي كل قصة من المشاهد والجزئيات ما تفردت به السورة التي ذكرت فيها هذه القصة[٤].

هذا ولكل موضع سياقه الخاص به، والمعنى الذي يرمي إليه، والغرض المقصود من إيراده، فقد تذكر القصة كاملة، وتارة موجزة، وأخرى إشارة؛ تبعًا للغرض الذي سيقت من أجله.

---

(١) ينظر القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته ٢٣.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢٥٥.

(٣) ينظر مباحث في علوم القرآن ٣٠٧- ٣٠٨، والأهداف التربوية في القصص القرآني ٩٦، وينظر البرهان في علوم القرآن ٣/١٠-١١/٢٥-٢٨.

(٤) ينظر الأهداف التربوية في القصص القرآني ٩٧.

سر تكرار قصة موسى -عليه السلام- في القرآن الكريم:

تُعد شخصية موسى -عليه السلام- من أكثر الشخصيات القرآنية ذكراً، سواء أجاء ذلك في نصوص مطولة أم قصيرة،، علماً بأن معظم المواقف والأحداث المرتبطة بموسى قد تكررت.

وابن تيمية رحمه الله يجلي بعض الأسباب في تكرار قصة موسى مع فرعون في القرآن الكريم، فيذكر قائلاً: "لأنهما في طرفي نقيض في الحق والباطل، فإن فرعون في غاية الكفر والباطل حيث كفر بالربوبية وبالرسالة، وموسى في غاية الحق والإيمان، من جهة أن الله كلمه تكليماً، لم يجعل الله بينه وبينه واسطة من خلقه فهو مثبت لكمال الرسالة، وكمال التكلم، ومثبت لرب العالمين بما استحقه من النعوت وهذا بخلاف أكثر الأنبياء مع الكفار فإن الكفار أكثرهم لا يجحدون وجود الله ولم يكن أيضا للرسل من التكليم ما لموسى فصارت قصة موسى وفرعون أعظم القصص، وأعظمها اعتبارا لأهل الإيمان ولأهل الكفر ولهذا كان النبي يقص على أمته عامة ليلة عن بني إسرائيل، وكان يتأسى بموسى في أمور كثيرة ولما بشر بقتل أبى جهل يوم بدر قال هذا فرعون هذه الأمة"[1].

وقصة موسى -عليه السلام- تكررت في القرآن الكريم كثيراً، والسر -والله أعلم- هو التشابه الكبير بين موسى -عليه السلام- وما لقيه من قومه من أذى وتآمر ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ (سورة القصص آية: ٢٠)، وما لاقاه نبينا محمد ﷺ من تآمر وأذى من قريش وزعمائها ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ (سورة الأنفال آية: ٣٠)، فكانت قصة موسى تسلية له بما كابده من قومه وما عاناه أصحابه من تعذيب واضطهاد؛ ولذلك قال ابن القيم: "ولهذا يذكر الله -سبحانه وتعالى- قصة موسى -عليه السلام- ويعيدها، ويبديها، ويسلي رسول الله ﷺ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما يناله من أذى الناس: لقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر. فتأمل هذا التناسب بين الرسولين والكتابين الشريفين"[2] فذكرها بصور متعددة؛ تأنيساً للنبي -ﷺ-، وتثبيتاً له، وما فيها من عظات وعبر؛ ولذلك قال البقاعي: "وقلّما تجد في الكتاب العزيز ورود تسليته -عليه السلام- إلا معقبة بقصص موسى -عليه السلام- وما كابد من بني إسرائيل وفرعون، وفي كل قصة منها إحراز ما لم تحرزه الأخرى من الفوائد والمعاني والأخبار، حتى لا تجد قصة تتكرر، وإن ظن ذلك من لم يمعن النظر، فما من قصة من القصص المتكررة في الظاهر، إلا ولو سقطت أو قدر إزالتها لنقص

(١) الفتاوى ٩/١٢.

(٢) جلاء الأفهام ١٥٢/١.

من الفائدة ما لا يحصل من غيرها"[١].

وأسلوب القرآن في القصص أو غيره أسلوب متميز خارج عن الأساليب المعروفة يقول الباقلاني: "وهو أن عجيب نظمه، وبديع تأليفه، لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص، ومواعظ، واحتجاج، وحكم، وأحكام وإعذار، وإنذار، ووعد، ووعيد، وتبشير، وتخويف، وأوصاف، وتعليم أخلاق، كريمة، وشيم رفيعة، وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها"[٢].

ونظم القرآن في جميع ما يتصرف فيه من الوجوه "على حد واحد في حسن النظم، وبديع التأليف، والرصف"[٣].

وأخيراً تكرار القصة القرآنية يخدم غرضين في آن واحد، غرضاً فنياً يتمثل في تجدد أسلوبها إيراداً وتصويراً، والتفنن في عرضها إيجازاً وإطناباً، والتنوع في أدائها لفظاً ومعنى، وغرضاً نفسياً، بما له من تأثير في النفوس[٤].

ومن القصص التي تكررت في القرآن الكريم قصة أم موسى –عليه السلام– فقد تكررت في سورتين هما القصص، وطه، والقرآن الكريم له أسلوبه الخاص في عرض قصصه، فقد اختلف الخطاب في السورتين بما يتناسب مع الموقف، وقبل أن ندلف إلى الجانب التطبيقي من البحث يحسن أن نبين مقاصد السورتين بشكل موجز.

والمقصد هو ما يسميه الفراهي عمود السورة[٥]، فكل سورة لها مقصد واحد يدار عليه أولها وآخرها ويستدل عليه فيها فتترتب المقدمات الدالة عليه، علي أكمل وجه وأبدع منهج[٦]، وأغراض كل سورة وموضوعاتها تصب في هذا المقصد.

سورة طه: دل مقصودها بإضافتها إلى موسى عليه السلام بتأصل قصته، وما كان فيها من قدرة الله وحكمته، وإعلام الداعي صلى الله عليه وسلم، بإمهال المدعوين، والحلم عنهم، والترفق بهم[٧]، وذكر في هذه السورة قصة موسى عليه السلام التي أجملها في سورة الأنبياء فاستوعبها غاية الاستيعاب، وبسطها أبلغ بسط[٨].

فهي تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتأنيساً له على دعوته حين نصر الله موسى عليه السلام على فرعون، لذلك يرى السيوطي أن مقصود السورة يدور حول التلطف والتأنيس[٩].

وذكرت أم موسى في هذه السورة في إطار المنن التي من الله بها على موسى، وهي رعايته من صغره وحفظه، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ

(١) نظم الدرر ٣٤٥/٥.
(٢) إعجاز القرآن ٣٦/١.
(٣) السابق ٣٧/١.
(٤) ينظر سيكولوجية القصة في القرآن ١١٦.
(٥) دلائل النظام ص٦٢.
(٦) ينظر مصاعد النظر ١ /٤٢.
(٧) ينظر مصاعد النظر ٢٧١/٢ ونظم الدرر ٣/٥.
(٨) ينظر تناسق الدرر ١١٧.
(٩) ينظر معترك الأقران ٧٠/٣.

مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾.

سورة القصص: مقصودها التواضع لله، المستلزم لرد الأمر كله إليه، الناشئ عن الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، الثابتة بإعجاز القرآن، المظهر للخفايا على لسان من لم يتعلم قط من الخلق[1]وذكر في هذه السورة قصة موسى عليه السلام التي أوجزها في سورتي الشعراء والنمل وفصل هنا ما أجمله فيهما[2].

وذكرت أم موسى لأن هذه السورة فيها تفصيل لحياة موسى عليه السلام من نشأته حتى قيامه برسالته التي كلف بها، وأم موسى ردت الأمر كله لله فاستجابت لأمره، وتوكلت عليه، وعملت الأسباب لنجاته، مع يقينها بأن الله حافظ ولدها، وراجع إليها؛ ليقوم برسالته إلى فرعون، كما قال سبحانه وتعالى ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وبعد بيان مقصود السورتين نأتي إلى الجانب التطبيقي من البحث.

المبحث الثاني: الجانب التطبيقي:

المطلب الأول: بلاغة حديث القرآن عن قصة أم موسى.

المطلب الثاني: موازنة بين سورتي طه والقصص.

المطلب الأول: بلاغة حديث القرآن عن قصة أم موسى:

مدخل:

بلاغة حديث القرآن عن قصة أم موسى ونعني به تحليل الآيات الواردة في هذه القصة، وإبراز إعجازها، وأغراضها، وتنوع أساليبها حسب المقام الذي وردت فيه، ومطابقتها لتلك الأحوال والمقامات.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (سورة القصص ٧)، وقال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ (سورة القصص ١٠-١١)، وقال تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ (سورة طه ٣٨-٣٩)، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ (سورة طه ٤٠).

لقد شكلت هذه التكرارات نسقاً تصويرياً

(١) ينظر مصاعد النظر ٣٣٨/٢ ونظم الدرر ٤٦٠/٥.

(٢) ينظر تناسق الدرر ٢٣/١.

متكاملاً وضحت من خلاله حالة الأم وأحداثاً من طفولة موسى –عليه السلام– فآية تطرقت لعملية قذف موسى باليم، وأخرى أوضحت ما قبل القذف، وهي عملية الرضاعة، وأخرى ذكرت القذف في اليم ولم تذكر الأداة التي وُضع فيها، بينما ذكرت أخرى التابوت، وهنا تتضح عملية مدبرة لحماية هذا الطفل الرضيع، فقد حصل على الغذاء، والوسيلة التي ستحمله في عرض البحر، وآية أخرى تحدثت عن عودته لأمه، بينما آية أخرى وضحت كيفية عودته، وكيفية حفظه في عرض البحر، ومثل هذه الأنساق التكاملية في تكرارات القصص القرآني تحفز العقل، للبحث والمتابعة للأحداث والمواقف والصور من أجل الوقوف على كامل أجزاء القصة القرآنية في آيات القرآن الكريم وسوره، فهذه إعجازات بلاغية تستوجب الاستكناه والتدبر(١).

وتبدأ قصة أم موسى –عليه السلام– في سورة القصص بقوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (سورة القصص ٧).

وسيكون مسار البحث في الجانب التطبيقي مرتبطًا بالقصة وتتابع أحداثها وتصاعدها؛ ولذلك تم تقسيم القصة على شكل أحداث تبدأ بالأمر بالإرضاع، والإلقاء في اليم، ثم الانتقال إلى وضعه بعد الإلقاء، ثم الحديث عن وضعه بعد وصوله لقصر فرعون، ثم تتوالى المفاجآت على أم موسى، ثم الحديث عن دورها في تتبع وليدها، ثم تهيئة الأسباب؛ لتحقيق الوعد بعودته، ثم إنهاء القصة برجوع موسى إلى أمه وتحقق الوعد، وأخيرًا يقف البحث في الموازنة بين السورتين في أحداث القصة.

بقي أن أبين أني آثرت معالجة الفن البلاغي في سياقه؛ لأن إخراجه من سياقه يفقده قيمته.

وبعد هذا الإيجاز ندلف إلى التفصيل.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾.

(١) ينظر الشخصية في القصص القرآني ٣٦.

الأمر بالإرضاع والإلقاء في اليم:

قال تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ أي: وألهمنا أم موسى، وقذفنا في قلبها أن أرضعيه ما أمكنك إخفاؤه عن عدوه وعدوك؛ فإذا خفت عليه من جواسيس فرعون ونقبائه الذين يقتلون أولاد بنى إسرائيل اتباعا لأمره، أو من الجيران أن ينمّوا عليه إذا سمعوا صوته، فألقيه في النيل ولا تخافي هلاكه، ولا تحزني لفراقه.

روى أن دارها كانت على الشاطئ فاتخذت تابوتًا، ومهدت فيه مهدًا، وألقته في النيل، وليس هناك من دليل على الزمن الذي قضته بين الولادة والإلقاء في اليم، ثم وعدها سبحانه بما يسليّها، ويطمئن قلبها ويملؤه غبطة وسرورًا، وهو رده إليها، وجعله رسولاً نبيًّا(١).

تبدأ القصة بخطاب إلهي إلى أمه، حيث يتصف الخطاب بالماضي، ثم بسلسلة من الأوامر، استجلاءً لمستقبل هذا الطفل، مما جعل أمه تخوض في هذا الصراع المأزوم بفاعلية واثقة في كيفية التعامل مع هذا الطفل إلى تغيير ما في واقع بيئته وقومه، والمهدد في نفس الوقت بالموت؛ إذا علم به الأعداء، فهي قد أُحيطت علماً بما سيؤول إليه هذا الطفل من العناية الخارقة، كطفلٍ أولاً، وكرجلٍ صاحب رسالةٍ ثانياً(٢).

وجاء في آية أخرى في سورة طه ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ (سورة طه ٣٨-٣٩)، وهنا يأتي الأمر لأم موسى خلال خطاب موسى بقذفه في التابوت.

قال -تعالى-: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾، ومعنى الوحي إلقاء الكلام في خفاء؛ ولذلك قال ابن فارس: "(وحي) الواو والحاء والحرف المعتلّ: أصلٌ يدلُّ على إلقاء عِلْمٍ في إخفاء أو غيره إلى غيرك. فالوَحْيُ: الإشارة. والوَحْي: الكتابُ والرِّسالة. وكلُّ ما ألقيتَه إلى غيرك حتَّى علِمَهُ فهو وَحيٌ كيف كان. وأوْحَى الله تعالى ووَحَى"(٣)، ومعنى الآية "قذفنا في قلبها، وليس بوحي نبوة"(٤) في حين يرى أبو حيان: «أن يكون إرسال ملك هو الظاهر لقوله: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾"(٥)؛ لذلك يقول ابن عاشور: "الوحي هنا وحي إلهام؛ يوجد عنده من انشراح الصدر ما يحقق عندها أنه خاطر من الواردات الإلهية، فإن الإلهام الصادق يعرض للصالحين، فيوقع في نفوسهم يقيناً ينبعثون به إلى عمل ما ألهموا إليه. وقد يكون هذا الوحي برؤيا صادقة رأتها"(٦)، ومن المعلوم أن هناك طرقا للوحي كالمنام، أو الإلهام الفطري، أو

(١) ينظر تفسير المراغي ٣٧/٢٠.
(٢) ينظر الشخصية في القصص القرآني ٦٦.
(٣) معجم مقاييس اللغة ٩٣/٦.
(٤) تفسير الطبري ٣١/٢٠.
(٥) المصدر البحر المحيط ٢٨٦/٨-٢٨٧.
(٦) التحرير والتنوير ٧٣/٢٠.

إرسال الملك، وكلها جائزة الوقوع، وغاية الأمر أن الوحي تم من الله إلى أم موسى بأي طريقة كانت؛ لأن الوحي بكل هذه المعاني مستعمل في القرآن الكريم. والتعبير بنون العظمة يدل على هذا ولذلك قال صاحب نظم الدرر " أي أوصلنا بعظمتنا بطريق خفي"[١].

والمراد من عرض ما جاءت به كتب التفسير حول كيفية الوحي إلى أم موسى –عليه السلام– نفي أن يكون ذلك الوحي وحي نبوة، إذ لم يجعل الله تعالى من النساء نبيه ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ (سورة النحل ٤٣)، وعلى هذا هو وحي إلهام لا إعلام، وأجمع الكل على أنها لم تكن نبية[٢].

وقد أمرها الله سبحانه بإرضاعه وعدم الخوف على مصيره، فهو حافظه، قال سبحانه ﴿أَنۡ أَرۡضِعِيهِ ۖ﴾ واختلفوا في مدة الرضاع، قيل: ثمانية أشهر، وقيل: أربعة أشهر، وقيل: ثلاثة أشهر كانت ترضعه في حجرها، وهو لا يبكي ولا يتحرك، ﴿فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ﴾ يعني: من الذبح، ﴿فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ واليم: البحر، وأراد –هاهنا– النيل، ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ قيل: لا تخافي عليه من الغرق، وقيل: من الضيعة، ﴿وَلَا تَحۡزَنِيٓ﴾ على فراقه[٣].

ويمكن أن يقال: إن قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَرۡضِعِيهِ ۖ﴾ فيه إرشاد للأمهات أن لا يهملن إرضاع أولادهن لأقل الأسباب – كابتغاء الراحة مثلاً – واستحباب ذلك

وهنا سؤال هل تحتاج الأم أن تؤمر بإرضاع ولدها مع أنها تقوم بذلك؟ أو بالتعبير الذي يورده أبو يحيى زكريا الأنصاري ويجيب عليه، وهو أنه: ما فائدة وحي الله تعالى إلى أم موسى بإرضاعه، مع أنها ترضعه طبعاً وإن لم تؤمر بذلك؟

ويجيب عليه بقوله: "أمرها الله بإرضاعه ليألف لبنها، فلا يقبل ثدي غيرها بعد وقوعه في يد فرعون، فلو لم يأمرها به ربما كانت تسترضع له مرضعة، فيفوت المقصود"[٤].

وأن مفسرة؛ لأن الإيحاء فيه معنى القول دون حروفه، ويجوز أن تكون مصدرية على بابها، وهي مع مدخولها في تأويل مصدر[٥]. وعلى هذا يمكن القول بأن دلالة الفعل "الأمر" في قوله: "أرضعيه" هي الدلالة الحقيقة التي تفيد الوجوب والإلزام، كما يلزم به السياق ويؤكده.

وهذه الآية بداية قصة موسى –عليه السلام– وهو طفل رضيع إلى نهاية هلاك فرعون الذي بلغ طغيانه مداه قال سبحانه ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾ (سورة القصص ٤)؛ لأنه كما جاء في الآية أنه علا في الأرض واستضعف بني إسرائيل، وهذه الآية تصور بعض الأحداث

(١) نظم الدرر ٤٦٥/٥.
(٢) ينظر القرطبي ٢٥٠/١٣.
(٣) ينظر تفسير البغوي ١٩٠/٦.
(٤) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن ٤٢٧.
(٥) ينظر إعراب القرآن وبيانه ٢٨٠/٧.

التي سوف تواجه هذا الغلام لكن ما سبب هذا القتل، من قبل فرعون للأطفال؟، قال السدي: "إن فرعون رأى في المنام أن ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر، فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل، فسأل علماء قومه عن تأويله، فقالوا: يخرج من هذا البلد رجل يكون على يده هلاك مصر، فأمر بذبح أبنائهم واستحياء نسائهم، وأسرع الموت في شيوخ بني إسرائيل فقال القبط لفرعون: إن شيوخ بني إسرائيل قد فنوا بالموت، وصغارهم بالقتل فاستبقهم لعملنا وخدمتنا أن يستحيوا في عام، ويقتلوا في عام فولد هارون في عام الاستحياء، وموسى في عام القتل"[١].

وسبحان الله يولد موسى -عليه السلام- في العام الذي يقتل فيه الغلمان، ولكن الله -سبحانه- مع عباده الصالحين يحفظهم ويتولاهم، لتمضي إرادة الله ومشيئته، ولذلك كان التحدي كبيرا لأم موسى، فقد ولدت هذا الغلام في العام الذي يقتل فيه الغلمان، وليس هذا فحسب، بل يدخل قصر فرعون ويقوم برعايته، والعناية به.

والله -سبحانه وتعالى- قادر على أن تكون ولادة موسى في العام الذي لا يقتل فيه الغلمان ولكن هذه إرادته، حتى تمضى الأسباب إلى غاياتها "وإذا كان الله -سبحانه وتعالى- في غنى عن هذه الأسباب التي تتصل بالمسببات، حيث يقول للشيء "كن فيكون"، فإنه سبحانه، يرينا بهذا التدبير أن هناك أسباباً يتوسل بها إلى المسببات، وأن علينا أن نأخذ كل أمر بأسبابه التي تقع في حسابنا وتقديرنا"[٢] وخوف أم موسى على ولدها من القتل متيقن عندها ومعلوم؛ لأن فرعون كان يذبح الأطفال، فهي في هذه الحالة محتاجة إلى من يرشدها في هذه الأجواء المشحونة بالخوف، لذلك أرشدها سبحانه في اتخاذ قرارها المصيري وطمأنها، فقال سبحانه: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ۝٧﴾ والفاء عاطفة و"إذا" ظرف لما يستقبل من الزمان.

والخوف: "هو توقع حلول مكروه، أو فوت محبوب"[٣]، والمقصود بالخوف هنا أيَ إذا خِفْتِ عَلَيْهِ من الذبح[٤]، إذن عليك أن تعملي بالأسباب وأن تخفيه ما أمكنك إخفاؤه عن عدوه وعدوك[٥].

ولما كان الخوف متوقع الحدوث دخلت عليها أداة الشرط "إذا" التي تدل على تحقق وقوع الشرط دون "إن" التي تدل على الشك في حدوثه، يقول عبدالقاهر: "(إنْ) فيما يترجح بين أن يكون، وأن لا يكون، وبـ(إذا) فيما علم أنه كائن"[٦].

وقوله: ﴿وَلَا تَخَافِي ۝٧﴾ أي لا يتجدد لك خوف أصلاً من أن يغرق أو يموت من ترك الرضاع، وإن طال المدى، أو يوصل إلى أذاه،

(١) النكت والعيون ٢٣٤/٤.

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٣١١/١٠.
(٣) المعجم الوسيط ٢٦٢.
(٤) ينظر الخازن ٣٥٦/٣.
(٥) ينظر تفسير المراغي ٣٧/٢٠.
(٦) دلائل الإعجاز: ٨٢.

ولا تحزني أي: ولا يوجد لك حزن لوقوع فراقه[١].

ولعل الحزن الكائن هو توعد فرعون بقتل الأولاد، والخوف هو الهلاك المتوقع بما يحصل له في المستقبل إذا فارقته، وألقته في اليم، وقد علل نهيه عن الأمرين في جملة اسمية دالة على الثبات والدوام، مؤكدة لاستبعاد مضمونها: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ ۝٧﴾ فأزال مقتضى الخوف والحزن، فإن "الجملة تعليل للنهي عن الخوف والحزن"[٢]، ثم زادها بشرى لا تقوم لها بشرى بقوله: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ أي الذين هم خلاصة المخلوقين، والآية من الاحتباك[٣]، ذكر الإرضاع أولاً دليلاً على تركه ثانياً، والخوف ثانياً دليلاً على الأمن أولاً، وسره أنه ذكر المحبوب لها تقوية لقلبها، وتسكيناً لرعبها[٤]؛ لذلك فإن "إيثار الجملة الاسمية وتصديرها بحرف التحقيق للاعتناء بتحقيق مضمونها أي إنا فاعلون ردّه، وجعله من المرسلين لا محالة"[٥].

وفي ذكر القيد ﴿إِلَيْكِ ۝٧﴾ زيادة تثبيت واطمئنان لقلب الأم؛ الذي ينفطر لفراق ولدها.

ومما نلاحظه هنا دقة التدبير الإلهي للأمور، والاهتمام برعاية الأسباب، والأخذ بها؛ مما يجعل كل أمر يسير بطبيعته، وهذا ما كان بشأن موسى –عليه السلام–، فإنه حين التقم ثدي أمه، وذاقه، لم يرق له غيره، فكان سبباً لعودته لها بعد ذلك فسبحان الله! !، ومن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ۝٧﴾ يستدل على أن الخوف الطبيعي من الخلق لا ينافي الإيمان، ولا يزيله [٦]. فهو أمر فطري؛ مع ضرورة الاعتقاد أن المخوف ليس بيده شيء، وأن ما قدره الله هو الكائن، والله علم أن أم موسى قد خافت على وليدها من فرعون أن يقتله، ولم ينهها عن ذلك، "بل هذا الخوف الطبيعي الذي ينتج الحذر والأخذ بالأسباب للبعد عن الأذى والسوء، وهذا أمر طبيعي"[٧].

والفاء في قوله: ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ ۝٧﴾ (الفاء) رابطة لجواب الشرط[٨].

وجاء الأمر الالهي بإلقائه في اليم، وجاء في آية أخرى في سورة طه بقذفه في اليم ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾

(١) ينظر نظم الدرر ٥/٤٦٦.
(٢) روح المعاني ١٠/٢٥٦.
(٣) الاحتباك: هو أن يحذف من الأوائل ما جاء نظيره أو مقابله في الأواخر، ويحذف من الأواخر ما جاء نظيره أو مقابلة في الأوائل، والتسمية مأخوذة من الحبك وهو الشد والإحكام، وهذا من بدائع القرآن وإيجازه الرائع. (الإتقان في علوم القرآن ٣/ ٢٤٢، ومعترك الأقران ١/ ٢٤٢، والبرهان للزركشي ٣/١٢٩).
(٤) ينظر نظم الدرر ٥/٤٦٦.
(٥) روح المعاني ١٠/٢٥٦.
(٦) ينظر تفسير السعدي ٦١٢.
(٧) القصص القرآني الكريم بين الآباء والأبناء ٢٧٨.
(٨) الجدول ٢٠/٢٢٢.

ولاشك أن هذا أمر صعب عليها، كيف تضع طفلا ضعيفا لا حول له ولا قوة في تابوت وتلقيه في الماء؟! وكيف تكون النجاة في رميه في البحر؟! وكيف يكون الأمن له برميه في الماء؟ لكن الذي يعزيها في فعلها أنه أمر الله ولا مناص من تنفيذه، فهي رسالة من الله لأم موسى، لما هي مقدمة عليه من أهوال لن تستطيع مواجهتها إلا بعون من الله؛ لأنها فوق التصور، فبعد الرضاعة أمرها أن تلقيه في اليم، وهل يفعل ذلك عاقل؟! وهل تلقي أم عاقلة بفلذة كبدها في لجج البحر، وهي تبحث عن نجاته؟ لكنها فعلت كل ذلك من أجل نجاته، وهو أمر الله، واليقين بموعوده -سبحانه-، فقد بشرها بعودته إليها رغم كل تلك الأهوال، فهناك جنود الله الذين كان لهم دور في حماية موسى، وقد "أطلعنا القرآن الكريم على بعض جنود الله الأخفياء، الذين كان لهم دور في حماية موسى، وإعادته إلى أمه، منهم: التابوت الذي وضع فيه موسى، واليم الذي حمل التابوت، وقلب امرأة فرعون الذي رق لموسى، وامتلأ محبة له، وشفتا موسى اللتان رفضتا قبول أي ثدي، حتى عاد موسى إلى أمه"(١).

وضع موسى -عليه السلام- بعد الإلقاء:

إن خوف أم موسى-عليه السلام- من فرعون، هو الخوف الذي بينه القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾(٢).

فقد خافت أم موسى -عليه السلام- على ابنها من أن يقتل على يد فرعون وزبانيته الذين استحلوا سفك دماء مواليد بني إسرائيل الذكور. وقد كان علاج هذا الخوف كما ورد في القرآن هو الوحي؛ قال صاحب روح البيان: "فإذا خفت حفظه وعجزت عن تدبيره فسلميه إلينا؛ ليكون في حفظنا وتدبيرنا"(٣). ولذلك قال لها سبحانه ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ وهنا سؤال يطرحه الزمخشري ويجيب عليه بقوله: "فإن قلت ما المراد بالخوفين: حتى أوجب أحدهما ونهى عن الآخر؟ قلت: أما الأول: فالخوف عليه من القتل؛ لأنه كان إذا صاح خافت أن يسمع الجيران صوته فينمّوا عليه، وأما الثاني: فالخوف عليه من الغرق، ومن الضياع، ومن الوقوع في أيدي بعض العيون المبثوثة من قبل فرعون في طلب الولدان، وغير ذلك من المخاوف"(٤)، وهنا سؤال لقائل أن يقول: ما الفرق بين الخوف والحزن حتى عطف أحدهما على الآخر؟ ثم أليس من التناقض أن يثبت الخوف في ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ ثم ينفيه بقوله ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ "والجواب على التناقض المزعوم أن الخوف الأول المثبت هو غرقه في النيل، والثاني هو خوف الذبح، فاندفع ما يتوهم من

(١) مع قصص السابقين في القرآن ٨٢/١.

(٢) سورة القصص ٧.

(٣) روح البيان ٣٨٣/٦.

(٤) الكشاف ٣٩٣/٣.

تناقض "[١]، وأما الجواب على الاعتراض الأول الفرق بين الخوف والحزن حتى عطف أحدهما على الآخر فهو "مندفع بأن هذا من باب الإطناب، بل هو قسم نادر من أجمل أقسامه، وهو أن يذكر الشيء فيؤتى فيه بمعان متداخلة، إلا أن كل معنى مختص بخصيصة ليست للآخر"[٢]، والنهي عن الخوف وعن الحزن نهي عن سببيهما، وهما توقع المكروه، والتفكر في وحشة الفراق[٣].

وكما قلنا فيما سبق إن الخوف هو غم يصيب الإنسان لأمر يتوقع نزوله في المستقبل، والحزن غم يصيبه لأمر وقع فعلا ومضى، فنهيت عنهما جميعا والله أعلم.

وبالتأمل نجد أن الآية السابقة أوجزت مسيرة هذا الطفل حتى عودته لأمه. جاء في سورة طه قوله –تعالى–: ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ (سورة طه ٣٦-٣٩)، فالضمائر كلها "راجعة إلى موسى، ورجوع بعضها إليه، وبعضها في التابوت فيه هجنة لما يؤدي إليه من تنافر النظم، فإن قلت المقذوف في البحر هو التابوت، وكذلك الملقى إلى الساحل. قلت: ما ضرك لو قلت: المقذوف والملقى هو موسى في جوف التابوت، حتى لا تفرق الضمائر فيتنافر عليك النظم الذي هو أم إعجاز القرآن، والقانون الذي وقع عليه التحدي، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر"[٤].

وكان وحي الله تعالى إلى أم موسى –عليه السلام–:

١– أن تقوم بإرضاع موسى بعد ولادته ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾.

٢– أن تجهز له تابوتاً خشبياً على مقاسه، لتضعه فيه عند الخطر.

٣– وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾. حوى إيجازاً بليغاً؛ وذلك لاشتماله على أمرين (أن أرضعيه– فألقيه)، ونهيين: (ولا تخافي– ولا تحزني)، وخبرين متضمنين بشارتين: (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين). وفي أسهل وأسلس لفظ، وأوجز عبارة[٥]. حكى الأصمعي قال سمعت جارية أعرابية تنشد وتقول:

٤– أستغفر الله لذنبي كله... قبلت إنسانا بغير حله

٥– مثل الغزال ناعما في دله... فانتصف الليل ولم أصله

٦– فقلت: قاتلك الله ما أفصحك! فقالت: أو يعد هذا فصاحة مع قوله –تعالى–: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ الآية، فجمع في آية واحدة بين أمرين، ونهيين، وخبرين

(١) إعراب القرآن وبيانه ٢٨٥/٧.
(٢) إعراب القرآن وبيانه ٢٨٥/٧.
(٣) ينظر التحرير والتنوير ٢٧/٢٠.
(٤) الكشاف ٥٣٦/٢.
(٥) فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن ٤٢٧.

وبشارتين. [1]

٧- ونستدل من تنفيذ أم موسى لأمر الله لها بأن تلقي ابنها في النهر - الذي يغرق فيه الكبير قبل الصغير - على ما وصلت إليه من درجة عالية في طاعتها لله -تبارك وتعالى- وعلى قوة ثقتها به، يقول ابن القيم مبينًا منزلة تلك الثقة: "وهي التي لقنها الله تعالى لأم موسى بقوله لها: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ...﴾ الآية.

٨- فإن فعلها هذا هو عين ثقتها بالله، إذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت بولدها وفلذة كبدها في تيار الماء، تتلاعب به أمواجه، وجريانه إلى حيث ينتهي أو يقف"[2]، ودائماً يجب على من يعزم في قراره أن يكون واثقاً في ربه -سبحانه-، متوكلًا عليه.

٩- والأم تتشوق لمعرفة مصير ابنها الذي سوف تلقيه في النهر، فيأتيها الجواب؛ ملبيًا لتطلعها، وما يجول في نفسها: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وجملة ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ في موقع العلة للنهيين؛ لأن ضمان رده إليها يقتضي أنه لا يهلك، وأنها لا تشتاق إليه بطول المغيب، وأما قوله ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فهو لإدخال المسرة عليها[3].

"ولهذا الأسلوب البلاغي بعده النفسي، ولاسيما في هذا الموقف؛ لأنه يجعل المخاطب مترقبا متلهفا لمعرفة الغموض الذي أحدثته الجملة الأولى حول مصير الرضيع، بل وتثير تساؤلات واستفسارات في نفس المتلقي، وبذلك تجذبه وتشركه في الصياغة؛ حتى تأتي الجملة الثانية لتجيب عن السؤال، وتكون بذلك أطفأت أشواق النفس، وأشبعت تطلعه العاطفي إلى المجهول، وبهذا تتحقق المتعة النفسية"[4].

١٠- لذلك جاء التعبير بالجملة الاسمية دون الفعلية في قوله: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ولم يقل سنرده ونجعله رسولاً؛ وذلك للاعتناء بالبشارة، إذ إن الجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار[5].

١١- وهنا سؤال لم جاء التأكيد في الجملة الاسمية هل كانت شاكة في موعود الله؟ ونقول إن التوكيد في الجملة الخبرية جاء لزيادة الاطمئنان، فنزلت منزلة المتردد بأننا لن نكتفي بحفظه ورعايته، بل سيكون له شأن عظيم، وسينتهي هذا البلاء لصالحه، وإن التوكيد جاء مناسبًا لسياق الكلام؛ حيث يصوّر لنا حالة تلك الأم الفزعة على ولدها، والمفارقة له على خوف ووجل، فهي بحاجة إلى مزيد توكيد واطمئنان فجاءت الجملة الخبرية لمراعاة تلك الحالة ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

(١) ينظر القرطبي ٢٥٢/١٣.
(٢) مدارج السالكين ١٤٣/٢ وينظر تهذيب المدارج ٣٤٧.
(٣) ينظر التحرير والتنوير ١٧/٢٠.
(٤) التعبير القرآني والدلالة النفسية ٣٣٩.
(٥) ينظر صفوة التفاسير ٤٢٨/٢.

ونلحظ أن الأحداث بدأت هادئة ثم تصاعدت، فالأم تخاف أكثر، فما خافت منه وقعت فيه، فقد حصل ما كانت تخشاه وأشد، فقد وقع في يد فرعون، ووصل إلى قصره، وتوالي الأحداث هو المحرك الأساس للقصة، إذ تعدد الأحداث يقترن به المكان والزمان.

وصول موسى -عليه السلام- لقصر فرعون:

أقدار الله تمضي لغاياتها، فأم موسى التي تخشى على وليدها من الذبح الذي ينتظره إذ بها تلقي به في النهر ليصل إلى عدوه، الذي فعل ما فعل من القتل والذبح؛ خوفًا من وجود هذا الغلام الذي سيقوض ملكه، وإذا بهذا الغلام يصل لقصر فرعون، بل يعيش ويتربى فيه، إنه قدر الله عز وجل المحقق وأمره ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (سورة يس ٨٢). ورعاية الله عز وجل لموسى -عليه السلام- وإعداده له، وصدق -سبحانه- إذ يقول: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰٓ عَيۡنِيٓ﴾ (سورة طه ٣٩)، ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ (سورة طه ٤١) فهذا الطفل لا خوف عليه، حتى ولو كان في قصر فرعون، فهو في رعاية الله، فقد وعد بحفظه، ورده لأمه، مهما قابله من أحداث، فهو في عناية الله ورعايته، فلْتَنمْ أمه قريرة العين، فالمخاوف في ظله كلهن أمان، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ (سورة الطلاق ٣) فقد عاش في قصره دون أن يمسه بأذى، وتقدير الله غير تقدير البشر مهما فعلوا واحتاطوا.

قال تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾ (سورة القصص ٨). كانوا خاطئين "في كل شيء فليس ببدع منهم أن قتلوا ألوفا لأجله؛ ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون، أو مذنبين فعاقبهم الله -تعالى- بأن ربي عدوهم على أيديهم، فالجملة اعتراض؛ لتأكيد خطئهم أو لبيان الموجب لما ابتلوا به"(١).

ولما كان التقاطهم إياه يؤدي إلى كونه لهم عدوا وحزنا، فاللام في ﴿لِيَكُونَ﴾ لام العاقبة ولام الصيرورة، لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرة عين، فكان عاقبة ذلك أن كان لهم عدوا وحزنا. فذكر الحال بالمآل(٢).

ويرى بعضهم أن اللام هنا يصح أن تكون للتعليل، بمعنى أن الله- تعالى- سخر بمشيئته وإرادته فرعون وآله لالتقاط موسى؛ ليجعله لهم عدوا وحزنا، فكأنه- سبحانه- يقول: قدرنا عليهم التقاطه بحكمتنا وإرادتنا، ليكون لهم عدوا وحزنا.

وهذا المعنى أشار إليه ابن كثير بقوله: قال محمد بن إسحاق وغيره: "اللام" هنا لام العاقبة لا لام التعليل؛ لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك. ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضي ما قالوه، ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فإنه تبقى اللام للتعليل؛ لأن معناه أن الله تعالى، قيضهم

(١) تفسير البيضاوي ٢٨٣/٤.

(٢) ينظر تفسير القرطبي ٢٥٢/١٣.

لالتقاطه ليجعله لهم عدوًا وحزنًا فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾، ويميل الشيخ محمد سيد طنطاوي إلى الرأي الثاني فيقول: "ومع وجاهة الرأيين، إلا أننا نميل إلى الرأي الثاني، لأنه- كما قال الإمام ابن كثير- أبلغ في إبطال حذرهم منه، ولأن قوله- تعالى- : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ يشير إلى أن اللام للتعليل"[١]، فقد "شبه ترتب العداوة والحزن على الالتقاط، بترتب علته الغائية كالمحبة والتبني عليه، ثم استعير للمشبه اللفظ الموضوع للمشبه به، وهو لام التعليل"[٢].

وفي الآية استعارة تهكمية؛ لأنه لم يدعهم للالتقاط أن يكون لهم عدوا وحزنا، وإنما دعاهم شيء آخر كالتبني، ونفعه إياهم إذا كبر[٣].

ويذهب ابن عاشور إلى الرأي أن اللام لام التعليل، وهي المعروفة عند النحاة بلام "كي"، وقد استعملت في الآية استعمالا واردا على طريقة الاستعارة دون الحقيقة، لظهور أنهم لم يكن داعيهم إلى التقاطه أن يكون لهم عدوا وحزنا؛ ولكنهم التقطوه رأفة به، وحبا له، لما ألقي في نفوسهم من شفقة عليه، ولكن لما كانت عاقبة التقاطهم إياه أن كان لهم عدوا في الله، وموجب حزن لهم، شبهت العاقبة بالعلة في كونها نتيجة للفعل كشأن العلة، فاستعير لترتب العاقبة المشبهة بالحرف الذي يدل على ترتب العلة، تبعاً لاستعارة معنى الحرف إلى معنى آخر استعارة تبعية[٤].

وهناك رأي يرى أنه لا مجاز في الآية، ويحسن -هنا- إيراده "اعلم أن التحقيق - إن شاء الله- أن اللام في قوله: فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً، لام التعليل المعروفة بلام كي، وذلك على سبيل الحقيقة لا المجاز"[٥].

فكأنه يقول: قدرنا عليهم التقاطه بمشيئتنا؛ ليكون لهم عدوًا، وحزنًا، وهذا معنى واضح لا لبس فيه ولا إشكال[٦].

والالتقاط أصله من اللقطة، وهو ما وُجد ضالا فأخذ، والعرب تقول: لما وردت عليه فجأة، من غير طلب له ولا إرادة، أصبته التقاطاً، ولقيت فلانا التقاطاً[٧]. والالتقاط: إصابة الشيء من غير طلب[٨]والفاء في قوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ فصيحةٌ مفصحةٌ عن عطفِه على جملةٍ مترتبةٍ على ما قبلها، من الأمرِ بالإلقاءِ، وقد حُذفتْ تعويلاً على دلالة الحالِ، وإيذاناً بكمال سرعةِ الامتثالِ[٩].

والنظم الكريم نقلنا مباشرة بعبارات موجزة؛ لمعرفة المصير الذي آل إليه ذلك الغلام، لذلك فإن هذه الفاء مفصحة عن جملة محذوفة

(١) تفسير الوسيط ٣٨١/١٠.
(٢) بغية الإيضاح ٣/ ١١٨.
(٣) روح المعاني ٢٥٦/١٠.
(٤)ينظر التحرير والتنوير ١٨/٢٠.
(٥)أضواء البيان ١٥٠/٦.
(٦)ينظر السابق ١٥١/٦.
(٧) ينظر الطبري ٥٢١/١٩.
(٨)ينظر فتح القدير ٣٧٨/٥.
(٩) ينظر إرشاد العقل السليم ٢٢٠/٥.

اختزلت كثيرا من الأحداث قبل الوصول إلى هذه النتيجة، ففي الكلام حذف والتقدير "أي فألقتْهُ في اليمِّ بعد ما جعلتْهُ في التَّابوتِ حسبما أُمرت به فالتقطه آلُ فرعونَ[١]".

والنظم المعجز بتماسكه لم يشعرنا بتلك المحذوفات، والمشاهد التي تركت، بل توجه إلى النتيجة مباشرة دون إحساس بفجوات وهذا مما يميز القصة القرآنية عن غيرها من القصص بحسن الانتقال، والتناسق الفني، ودقة التصوير في عرض ما يمكن عرضه، ويحقق العبرة، فجاءت الفاء الفصيحة التي ربطت بين تلك الفجوات، دون أن يحس القارئ بها، مع إشراكه ليملأها بعقله.

وهنا سؤال لماذا عبر هنا بالالتقاط عن الأخذ؟ – الجواب والله أعلم–؛ لأنه يؤذن بالعناية به "أي أخذوه أخذَ اعتناءٍ به، وصيانةٍ له عن الضَّياعِ"[٢] وكلمة آل مثل كلمة أهل إلا أنها لا تستعمل –غالبًا– إلا في أشراف الأهل، وذوي المكانة، فآل فرعون من كانت لهم مكانة في قصره من أهله[٣].

وأسند الالتقاط إلى آل فرعون؛ لأن استخراج تابوت موسى من النهر كان من إحدى النساء الحافات بابنة فرعون[٤]، والإسناد مجاز عقلي علاقته السببية؛ "لأنه سبب الحزن وليس هو حزناً[٥]".

فإطلاق الحزن عليه؛ مبالغة في سببيته لحزنهم. وجاء في آية أخرى: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ (سورة طه ٣٩).

واللفظة في القرآن الكريم مختارة بدقة في لفظها، ومكانها من الجملة، فهو سيكون عدوًا لهم، وحزنًا لهم هم، دون غيرهم، فكانت هذه الصيغة أبلغ في الدلالة، وفي تقديم الجار والمجرور ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ﴾ ما يفيد هذا المعنى والله أعلم.

ثم بينت الآيات أن القتل الذي يفعله فرعون وهامان وجنوده في بنى إسرائيل حمق وطيش فقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾. ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ إن واسمها والجملة تعليلية[٦] وجاء التعبير بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والثبات، وفيه إشارة إلى أن كونهم خاطئين وصف لا ينفك عنهم، وقد فصلت جملة ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾. عن الجملة قبلها؛ لأنها مُنزلة منزلة العلة والسبب مما قبلها، وقد أثارت الأولى سؤالاً تصح الثانية أن تكون جوابًا عنه، فكأنه قيل: لماذا كان التقاطه عداوة وحزنًا، فيقال في الجواب: إن فرعون... وهو ما يسمى عند البلاغيين بشبه كمال الاتصال.

وخاطئين اسم فاعل من خَطئ أي حاد عن الصواب، ويقال: أخطأ فلان إذا أذنب عمداً أو

(١) السابق ٥/٢٢٠.
(٢) ينظر السابق ٥/٢٢٠.
(٣) ينظر معارج التفكر ودقائق التدبر ٣٥٢.
(٤) ينظر تفسير التحرير والتنوير ٢٠/١٨.
(٥) السابق ٢٠/١٨.
(٦) إعراب القرآن لدعاس ٢/٤٢١.

سهواً[١].

فالخطأ ديدنهم، فقد قتلوا أطفالا ضعفاء ليس لهم ذنب في طلب ذلك الغلام الذي خافوا منه، ولما جاء موسى –عليه السلام– لم يقتلوه، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، ولم ينفعهم حذرهم، ثم في حذف متعلق ﴿ خَٰطِـِٔينَ ﴾ دليل على عموم خطئهم، وعظيم ذنبهم؛ ولذا يقول الزمخشري: ﴿كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴾ في كل شيء، فليس خطؤهم في تربية عدوهم ببدع منهم، أو كانوا مذنبين مجرمين، فعاقبهم الله بأن ربى عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم"[٢]، وقيل: ﴿كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴾ في كل ما يأتون، وما يذرون فليس ببدع منهم أن قتلوا ألوفاً لأجله، ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون[٣]، وقيل: ﴿خَٰطِـِٔينَ ﴾ عاصين آثمين في كل أفعالهم وأقوالهم، وهو مأخوذ من الخطأ المقابل للصواب[٤]. ثم إن النظم القرآني فصَّل القول بذكر فرعون وهامان؛ لأنهما السبب في الخطأ دون جنودهما، وذلك مما يقتضي عطف هامان على فرعون بالتفصيل دون جنودهما[٥].

وفي هذه الآية إشارة إلى أن قدرة الله عز وجل وتدبيره وإرادته فوق كل قدرة وتدبير وإرادة ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (سورة يوسف ٢١)، وإشارة إلى عناية الله بأنبيائه ورعايته له[٦].

وهاهنا آثر النظم القرآني تعريف المسند إليه بالإضافة إلى العلم ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ ﴾ دون العلمية "آسية بنت مزاحم" وذلك قصدًا – فيما أحسب– إلى بيان منزلة تلك المرأة من فرعون، فيعظم قولها عنده، ويستجيب لرجائها في موسى –عليه السلام– ثم إن من سنن القرآن الكريم أن يعبر بكلمة "الزوج" إذا كان هناك توافق بين الرجل وزوجته، وإذا لم يكن هناك توافق عبر بكلمة "المرأة" –والله أعلم–.

وسبحان الله لما التقطه آل فرعون، حنَّن الله عليه امرأة فرعون الفاضلة الجليلة المؤمنة " آسية " بنت مزاحم " وَقَالَتِ " هذا الولد ﴿قُرَّتُ عَيۡنٍ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ ﴾ أي: أبقه لنا، لِتقرَّ به أعيننا، ونستر به في حياتنا. [٧] وحُمل التابوت من البحر إلى امرأة فرعون، وألقى الله محبة موسى في قلبها، فتعلقت به.

وقرة العين قِيلَ: أَصْلُهُ مِنَ الْقَرَارِ. لِأَنَّ مَا يُحِبُّهُ الْإِنْسَانُ تَسْكُنُ عَيْنُهُ عَلَيْهِ، وَلَا تَنْظُرُ إِلَى غَيْرِهِ.[٨]

والتعبير بقرة العين له دلالته ،قال الماوردي: "وفي قرة العين وجهان (أحدهما) أنه

(١) ينظر المصباح المنير ص١٠٧، وينظر المعجم الوسيط ٢٤٢/١.
(٢) الكشاف ٣٩٤/٣.
(٣) ينظر روح المعاني ٢٥٧/١٠، وينظر روح البيان ٣٨٤/٦.
(٤) ينظر فتح القدير ٣٨٨/٥.
(٥) ينظر بغية الإيضاح ١/ ٨٧.
(٦)ينظر المرأة في القصص القرآني ٣٩٥.
(٧)ينظر تفسير السعدي ٦١٢.
(٨) ينظر أضواء البيان ١١/٤.

بردها بالسرور مأخوذ من القر وهو البرد (الثاني) أنه قر فيها دمعها، فلم يخرج بالحزن، مأخوذ من قر في المكان إذا أقام فيه"(١).

وقال صاحب المفردات: "وقرّت عينه تقرّ سرت، قال تعالى: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ وقيل: لمن يسر به قرة عين، قيل أصله من القر أي: البرد فقرت عينه، قيل: معناه بردت فصحت، وقيل: بل لأن للسرور دمعة باردة قارة، وللحزن دمعة حارة؛ ولذلك يقال فيمن يدعى عليه: أسخن الله عينه، وقيل: هو من القرار، والمعنى أعطاه الله ما تسكن به عينه فلا يطمح إلى غيره"(٢).

وعلى كل فالأسلوب كناية عن حصول السرور والفرح، ولعل ظهور فرح الإنسان وسروره أكثر ما يظهر في العين، والعكس بالعكس صحيح، فلذا عبروا عن الفرح والسرور بقرار العين، وعن شدة العين بجمودهما وبخلها. فهذا الطفل هو محل السرور والفرح لعيني ولعينك يا فرعون.

وامرأة فرعون، عدلت عن قولها (لنا) إلى ﴿لِي وَلَكَ﴾ ؛ "لتفخيم شأن القرة... وكأنها لما تعلم من مزيد حب فرعون إياها، وأن مصلحتها أهم عنده من مصلحة نفسه قدمت نفسها عليه، فيكون ذلك أبلغ في ترغيبه بترك قتله"(٣).

فهي تقول لفرعون في تودد وتلطف واسترحام: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ لا تقتلوا هذا الولد وأبقوه لنا؛ ليكون قرة عين لنا، ويدخل علينا السرور بسببه، ويكون من خدامنا، أو نرقيه فنجعله من أولادنا. (٤).

"وتقع هذه الكلمات من قلب فرعون موقعا، فيجيب امرأته إلى ما طلبت، ويترك لها الوليد، تترضى به أنوثتها، وتشبع به جوع أمومتها!"(٥).

وامرأة فرعون طلبت منه عدم قتله، لتقر به عينها وعين فرعون. لذلك استبقاه فرعون بعد أن توسلت إليه، وألقى الله عليه محبته قال البغوي: "فاستحياه فرعون،... وقال لامرأته: عسى أن ينفعك فأما أنا فلا أريد نفعه، قال وهب قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو أن عدو الله قال في موسى كما قالت آسية: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾، لنفعه الله، ولكنه أبى؛ للشقاء الذي كتبه الله عليه"(٦).

والبلاء موكل بالمنطق كما يقال، ففرعون رفض كلام امراته فقال عسى أن ينفعك أنت، أما أنا فلا أريد نفعه، وهذا ما كان، فكان سببا في هلاكه، وذهاب ملكه، ولا يظلم ربك أحداً.

وارتفع ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ﴾ على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذا الطفل. وحذفه لأنه دل عليه حضوره بين أيديهم، وهو على حذف مضاف، أي هو سبب قرة عين لي ولك، وقرة العين كناية عن السرور، وهي كناية ناشئة عن

(١) النكت والعيون ٢٤٤/٣.
(٢) المفردات في غريب القرآن ٣٩٨.
(٣) روح المعاني ٢٥٨/١٠.
(٤) ينظر النفحات المكية ٣١٥.
(٥) التفسير القرآني ٣١٥/١٠.
(٦) تفسير البغوي ١٩٣/٦.

ضدها وهو سخنة العين.[١].

ويمكن ان يقال: إن حذف المسند إليه للعلم به، وللإسراع إلى المطلوب، وهو كونه قرة عين؛ لسرعة الإخبار بذلك.

وفصلت جملة ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ عن الجملة السابقة ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾؛ لأن الجملة الأولى بموقع التمهيد والمقدمة، والجملة الثانية بموقع التفريع عن المقدمة وأما جملة ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فهي في موقع العلة لمضمون جملة ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾، والله أعلم[٢].

ولسائل أن يسأل لماذا جاء بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ ؟ الجواب والله أعلم جاء خطابها بصيغة الجمع؛ لكثرة المشتركين فيه، وقيل خاطبته بصيغة الجمع تعظيما له حتى يستجيب لرغبتها[٣].

أو لأن فرعون هو الآمر بالقتل، والجنود هم المباشرون له، فيكون القتل جاء مشتركًا بين من أمر به، ومن قام به وباشره.

وقوله –تعالى–: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ وقد حصل لها ذلك، وهداها الله به، وأسكنها الجنة بسببه[٤]﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ وكانت لا تلد، فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها. [٥] ويقول الألوسي: "واتخاذه ولدا؛ لأنه لائق لتبني الملوك لما فيه من الأبهة. وعطف هذا على ما قبله من عطف الخاص على العام، أو تعتبر بينهما المغايرة وهو الأنسب بأو"[٦].

وفي استخدام لفظ "الترجي" ﴿عَسَىٰٓ﴾ ما يفيد حرصها على التأثير على فرعون وثنيه عما يعزم عليه من قتل، وبهذا الأسلوب تصور لنا مشاعرها تجاه هذا الصبي وقلقها عليه والله أعلم.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جملة حالية، من فاعل فعل محذوف، دل عليه سياق الكلام.. والتقدير.. تركوا الوليد، واستثنوه من الذبح، وهم لا يشعرون بما سيأتيهم من هذا الوليد، مما كانوا يحذرون[٧].

والجملة الحالية ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أدت دورًا فنيًّا في تصوير المشاهد ونقلها، فكأننا نشاهدها، فهم لا يشعرون أنه لهم عدو، ولا بما هو كائن من أمرهم، وأن هلاكهم سيكون على يديه، ولا يعلمون خفي إرادة الله سبحانه وتعالى، والتعبير يشعر بهذه المعاني.

فهم لا يعلمون أن هلاك الطاغية فرعون سيكون على يديه فهم "لا شعور لهم بما خبأه لهم القدر، وبما يئول إليه أمرهم معه من عظائم الأمور التي تؤدى إلى هلاكهم، وإنما علم ذلك لدى علام الغيوب، فهو الذي يدرى ما أراد بالتقاطهم إياه من الحكم البالغة، والحجج القاطعة"[٨].

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ٢٠/٢٠.
(٢) ينظر تفسير التحرير والتنوير ٢٠/٢٠.
(٣) ينظر إرشاد العقل السليم ٢٢٦/٤.
(٤) ينظر تفسير ابن كثير ٢٢٣/٦.
(٥) ينظر تفسير القرطبي ٢٥٣/١٣.
(٦) روح المعاني ٢٥٨/١٠.
(٧) التفسير القرآني ٣١٥/١٠.
(٨) تفسير المراغي ٤٠/٢٠.

لذلك كانوا على خطأ عظيمٍ فيما صنعُوا من الالتقاط، ورجاءِ النَّفعِ منه، والتَّبني له، وفي حذف متعلق قوله: ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾ دليل على عموم عدم شعورهم بما هو كائن لهم من هلاكهم على يد موسى عليه السلام، وفي تقديم الضمير وقوله: ﴿وَهُمۡ﴾ والإخبار عنه بالجملة الفعلية تقوية للحكم، وتأكيد له.

ومن موقف آسية امرأة فرعون بطلبها عدم قتل موسى تؤخذ عبرة وهي: "إن وجود الصالحين بين المفسدين يخفف من فساد المفسدين؛ إذ إن منع امرأة فرعون زوجها عن قتل موسى كان سبباً في عدم ارتكابه هذا الفساد والقتل"(١)، واختيار قوله: ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾ دون غيره من الألفاظ؛ لأنه من العلم الخفي، فهم لا يعلمون هذا الأمر الخفي، ولقد نفعها الله بموسى، وهداها إلى الإيمان، أما فرعون فقد كان هلاكه على يديه.

حزن أم موسى على وليدها، وتوالى المفاجآت عليها:

ينتقل المشهد من قصر فرعون إلى بيت أم موسى التي طار عقلها، وأصابها الهلع بعد أن علمت أنه وقع في يد فرعون، وهو ما هربت منه فتجلدت؛ لأن الله وعدها برجوعه. وتصور لنا الآيات بأسلوب بلاغي الحالة التي عاشتها أم موسى وكأننا معها، فقد ازداد قلقها بعد أن وقع ابنها في يد فرعون.

وتوالى الأحداث هو المحرك الأساس للسرد القصصي، إذ تعددها يقترن بالانتقال المكاني والزماني، وهنا انتقلت المشاهد من مكان إلى مكان.

قال تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (سورة القصص ١٠)، {أَصْبَحَ} مستعمل في معنى (صار) فاقتضى تحولا من حالة إلى حالة أخرى أي كان فؤادها غير فارغ فأصبح فارغا(٢)، وفيه دلالة على أنها ألقته ليلاً، وهو مما يناسب السياق؛ إذ قد ألقته خفية حتى لا يراها أحد، وهذا الذي يناسبه الليل بظلامه، ومعنى ﴿فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ أي: غشاء قلبها(٣)، الذي زاد احتراقه شوقاً وخوفاً وحزناً، ولكن النظم القرآني استعمل "الفؤاد" هنا ؛ لأنه بوابة القلب، وهو مشتق من التفؤد بمعنى التوقد والاشتعال ففؤاد أم موسى –عليه السلام– توقد واشتعل حرقة على وليدها، بينما قلبها مطمئن ساكن بوعد الله تعالى.

ماذا كان حال أم موسى بعد أن وضعت صغيرها في التابوت وألقت التابوت في نهر النيل، ليحمل صغيرها إلى قصر فرعون؟ ماذا كان حالها وقد فارقها وليدها، وألقت به في اليم؛ ليسير إلى فرعون الطاغية؟.

ما أصعب هذه اللحظات على أم موسى، وهل يمكن أن تفعل هذا امرأة؟ يا له من اختبار

(١)ينظر التحرير والتنوير ٨٦/٢٠.

(٢) ينظر التحرير والتنوير ٢٢/٢٠.

(٣) ينظر لسان العرب ٣/ ٣٢٩.

صعب وامتحان عسير، لولا رصيدها الإيماني لغلبت العاطفة على عقلها، وحالت بينها وبين الامتثال للأمر الإلهي[١].

ومعنى﴿فَٰرِغًا﴾ الفارغ من الفراغ وهو خلاف الشّغل، يقال: فرغ فراغاً وفروغاً، أي خاليا وهو فارغ أي كأنما فرغ من لبها لما تداخلها من الخوف[٢].

فهو فارغ من كل أمر من أمور الدنيا إلا من موسى –عليه السلام–، فهي تفكر في أمره، وتهتم بحاله ومآله. "أي خاليا من كل شيء إلا من ذكر موسى وهمه"[٣]، وقيل: فارغاً من الحزن والخوف ليقينها بوعد الله "من الهمّ والحُزن لغايةِ وثوقِها بوعدِ الله تعالى أو لسماعِها أنَّ فرعونَ عطفَ عليه وتبنَّاهُ"[٤].

وقيل: فارغاً من الوحي، قال الطبرسي: "وقيل فارغاً من الوحي الذي أوحي إليها بنسيانها فإنها نسيت ما وعدها الله تعالى به" وهذا الرأي –أراه– مرجوحًا[٥]، والرأي الراجح هو الأول: والمعنى: أصبح فؤاد أم موسى خالياً من التفكير في أي أمر من الأمور الدنيوية، فهي لا تفكر إلا في موسى، ولا تهتم إلا بالمصير الذي ينتظره، لذلك قال الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي، قول من قال: معناه وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا من كلّ شيء، إلا من همّ موسى"[٦]؛ ولهذا قال القرطبي: "والذين قالوه أعلم بكتاب الله عز وجل، فإذا كان فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى، فهو فارغ من الوحي"[٧].

والقرآن الكريم يختار الكلمة المصورة للمعنى أكمل تصوير، ليشعرك به أتم شعور وأقواه[٨].

فهذه اللفظة كشفت لنا المشاعر التي فاض بها قلب الأم تجاه و ليدها، فهي لا تفكر إلا بموسى، ولا يشغلها إلا هو، ومهما عبرنا فهذه اللفظة معبرة، ومصورة عاطفة الأمومة، فالأحاسيس والمشاعر كلها تتجه نحو هذا الطفل، وما سيحصل له.

وفي قوله ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ كناية عن فقدان العقل، وطيش اللب والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طاش صوابها، وطار عقلها لما انتابها من فرط الجزع والدهش[٩]، وسر التعبير بهذه الكلمة يجلي بعضه صاحب كتاب التفسير القرآني "إشارة إلى ما ترك ضياع الولد من يدها، من فراغ كبير، في مشاعرها، وأحاسيسها.. فلقد تعطلت بذهابه عنها كل العواطف التي تغذى بها الأم طفلها، من سهر عليه، ومناغاة له، واشتغال به في نومه، ويقظته، وفي بكائه، وصمته، وفي حركته وسكونه. إن جوارحها كلها التي ترصدها الأم لطفلها قد أصبحت

١(١)ينظر المرأة في القصص القرآني ٣٩٩.
(٢) ينظر المفردات في غريب القرآن ٤٢٢.
(٣) تفسير الخازن ٣٥٨/٢.
(٤) إرشاد العقل السليم ٢٢٢/٥.
(٥) مجمع البيان ٣٧٨/٧.
(٦) تفسير الطبري ٥٢٨/١٩.
(٧) تفسير القرطبي ٢٥٥/١٣.
(٨) ينظر من بلاغة القرآن ٦٤.
(٩) ينظر إعراب القرآن وبيانه ٢٨٥/٧.

أدوات معطلة لا تعمل، وهذا بدوره قد جعل قلبها وهو مركز العواطف والمشاعر، كيانا فارغا، لا يستقبل من الطفل ما يصل الأم به، من مشاعر وعواطف، إلا تلك العواطف السلبية.. من قلق، وأسى، ولوعة.."[١].

ولولا أن الله ثبت قلبها لأعلنت أمرها أن ذلك الوليد ولدها؛ عندما سمعت أن الناس يسمونه ولد فرعون.

ونلاحظ أن القصة القرآنية تذكر الضعف البشري، فقد قاربت أن تظهر الأمر من فرط اضطرابها، وضعفها، بعد أن صعقها الخبر.

وجملة ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ بيان لجملة: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾، أي كادت لتبدي أمر موسى من قلة ثبات فؤادها.[٢] ولذلك فصل بين الجملتين ولم تأت الواو العاطفة، فبين الجملتين كمال الاتصال، والإبداء هو الإظهار، وفي استعمال "إن" الشرطية مما يناسب جملة ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ ؛ لأن الربط على القلب جعل مقاربة الإبداء به أمر مشكوك فيه وكأن المعنى – والله أعلم– لولا أن ربطنا على قلبها لأبدت به، وأظهرت أمرها، وذكرت أنه ولدها، وهذا يبين مدى ضعف البشرية؛ لولا عناية الله وتأييده.

"فهي من لهفها عليه وشوقها إليه كادت أن تظهر للناس حزنها؛ لولا أن ثبتها الله"[٣].

لقد كانت أم موسى بين حالتين: "حالة الاهتمام بأمر وليدها، والانشغال به، والشوق إليه، وهذه طبيعة الأمومة، وحالة الاطمئنان لوعد الله عز وجل، واليقين والثبات، وهذه حالة المؤمن، والحالة الأولى مرتبطة ومحكومة بالحالة الثانية، بمعنى: أن العاطفة منضبطة ومرتبطة ومحكومة بالإيمان"[٤].

والباء في {بِهِ} لتأكيد لصوق المفعول بفعله، والأصل: لتبديه[٥].

وتعديته بالباء لتضمينه معنى التصريح، وقيل: المفعول محذوف، والباء سببية أي: تبدي حقيقة الحال بسببه، أي بسبب ما عراها من فراقه، وقيل: هي صلة أي تبديه[٦].

وقوله ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ أي بإلهام الصبر، كما يربط على الشيء المنفلت ليقرّ ويطمئن[٧] وفي استعمال كلمة "الربط" دليل على شدة الإحكام وكمال الإمساك، وهو مما يناسب قلب الأم المضطرب القلق؛ ولذا يقول صاحب صفوة التفاسير: "وفي الآية: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ ، استعارة فإن الله شبه ما قذف في قلبها من الصبر بربط الشيء المنفلت خشية الضياع، واستعار لفظ الربط للصبر"[٨].

والربط على القلب كناية عن قراره واطمئنانه، شبه بما يربط مخافة الانقلاب[٩]؛

(١) التفسير القرآني ٣١٥/١٠.
(٢)ينظر التحريروالتنوير ٢٣/٢٠.
(٣) النفحات المكية ٣١٥.
(٤)المرأة في القصص القرآني ٤٠٠.
(٥) ينظر التحرير والتنوير ٢٣/٢٠.
(٦)ينظر روح المعاني ٢٥٩/١٠.
(٧)ينظر الكشاف ٣٩٥/٣.
(٨) ينظر صفوة التفاسير ٤٢٨/٢.
(٩) ينظر البحر المحيط ٢٨٩/٨

ليظل القلب ثابتاً، واثقاً بوعد الله، لا تزعزعه الأحداث مهما كانت.

والقرآن الكريم يتأنق في اختيار ألفاظه، بحيث تؤمن بأن هذا المكان كأنما حلقت له تلك الكلمة بعينها، وأن كلمة أخرى لا تستطيع توفيه المعنى الذي وفت به أختها[١].

وهنا سؤال لماذا عبر مرة بالقلب ومرة بالفؤاد؟ والجواب: أن لفظة الفؤاد مأخوذ من فؤد أي اشتعل يقال فأَد الخبزة في المَلَّة يَفْأَدُها فَأْداً: شواها.. وفَأَدَ اللحمَ في النار يَفْأَدُه فَأْداً وافْتَأَدَه فيه: شواه. والمِفْأَدَةُ: السَّفُّودُ، وهو من فأَدت اللحم وافتأَدته إذا شويته[٢].

وسبحان الله كل تعبير جاء في موضعه، فقلبها اشتعل خوفاً واحترق وانشوى حزنا على ولدها، وخوفا عليه، فجاء التعبير متناسباً مع الحالة، فعبر بالفؤاد من الحرقة على موسى عليه السلام، لدرجة أنها كانت ستفضح أمره.

فلما صارت أم موسى في حالة الاطمئنان، كان المناسب التعبير بالقلب ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾. ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ (سورة الرعد ٢٨)، فكل لفظة تصور كل حالة بما يناسبها، فكأننا نشاهد الحالتين أمامنا، حالة الخوف والحزن والشك، وحالة الاطمئنان. فعند الشدة والقلق يطلق عليه فؤاد؛ لأنه يحترق، وعند الطمأنينة يسمى قلباً. – والله أعلم–.

وهنا سؤال ألم تكن من المؤمنين؟ والجواب أن المراد بالمؤمنين الذين يصدقون بوعد الله، أي لولا أن ذكرناها ما وعدناها فاطمأن فؤادها. فالإيمان هنا مستعمل في معناه اللغوي دون الشرعي؛ لأنها كانت من المؤمنين من قبل، أو أريد من كاملات المؤمنين. واللام للتعليل، أي لتحرز رتبة المؤمنين بأمر الله، الذين لا يتطرقهم الشك فيما يأتيهم[٣].

ونلحظ اختيار لفظ "الإيمان" بدل الإيقان مثلاً، وذلك لأن الإيمان معناه: التصديق بالغيب، وهو ما يناسب ما نحن فيه، إذ لا يزال أمر موسى –عليه السلام– وما يؤول إليه من الأمور الغيبية التي لم تحصل بعد من حيث رده، وجعله من المرسلين.

ونلحظ هنا أنه جاء بأسلوب التغليب فلم يقل لتكون من "المؤمنات"، وإنما ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، وفي أسلوب التغليب زيادة في معنى الوصف بالإيمان، إذ جاء بصيغة التذكير كما قال تعالى في آية أخرى ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ (سورة التحريم ١٢)، –والله أعلم.

والعبد إذا أصابته مصيبة فصبر وثبت، ازداد بذلك إيمانه، ودل ذلك على أن استمرار الجزع مع العبد، دليل على ضعف إيمانه[٤].

فقد ربط على قلبها بالعصمة والصبر والتثبيت، ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين لوعد الله حين قال لها: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾[٥].

---

(١)ينظر من بلاغة القرآن ٥٧.

(٢) ينظر لسان العرب ٣٢٨/٣.

(٣) ينظر التحرير والتنوير ٢٣/٢٠.

(٤)ينظر تفسير السعدي ٦١٢.

(٥)ينظر تفسير البغوي ١٩٤/٦.

وهو تعليل لهذا لربط الذي ربط الله – سبحانه– به على قلبها "وهو أنها بعد أن تتكشف لها الأمور، ستعلم أن ما وعدها الله حقّ، وبهذا يتأكد إيمانها بالله، ويقوى يقينها به، وفي هذا إشارة إلى أن ما يبتلى به المؤمنون الصابرون من أرزاء ومحن، هو تثبيت لإيمانهم، وترسيخ لقواعد هذا الإيمان في قلوبهم، حيث ينكشف لهم وراء كل رزء، وعقب كل محنة، أن ذلك لم يكن إلا عن تدبير الحكيم العليم، وأنهم لو استقبلوا من أمورهم ما استدبروا لما أقاموها إلا على هذا الوجه الذي أقامه الله ربّ العالمين، وبهذا ينتقلون من حال القلق، والجزع في مواجهة المصائب والمحن إلى حال التسليم، والرضا.. وهذا هو الإيمان في أرفع مقاماته، وأعلى منازله"(١).

وفي الآية إيغال(٢) وهو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها فقوله ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إيغال فهي من المؤمنين قطعاً، فهو سبحانه أراد تميم المعنى لإزالة أي احتمال.

دور أم موسى في تتبع وليدها:

ثم أخبر تعالى عن فعلها في التعرّف على خبر ابنها بعد أن أخبر عن كتمها بقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (سورة القصص ١١).

والْقَصُّ: تتبّع الأثر، يقال: قَصَصْتُ أثره، والْقَصَصُ: الأثر. قال تعالى: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ (٣).

طلبت أم موسى من أخته أن تستعلم خبره، وتتبع أثره ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ تابعته وهو في التابوت حتى وصل إلى الساحل الواقع أمام شرفة قصر فرعون، كما تتبعته وهم يحملونه ويطوفون به على المرضعات، فعلت ذلك بطريقة لا تلفت الأنظار إليها، قال قتادة: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده (٤)، ومعنى (عن جنب) أصله عن مكان جنب. وقال ابن عباس: " عَنْ جُنُبٍ" أي: عن جانب، وقيل: عن شوق، وحكى أبو عمرو بن العلاء أنها لغة لجذام، يقولون: جنبت إليك أي اشتقت وقيل: " عَنْ جُنُبٍ" أي: عن مجانبة لها منه، فلم يعرفوا أنها منه بسبيل، وقال البغوي "أنها كانت تمشي جانبا وتنظر اختلاساً، تري أنها لا تنظره"(٥).

فَبَصُرَتْ بِهِ أي أبصرته والفاء فصيحة أي

(١) التفسير القرآني ٣١٦/١٠

(٢) واصلة من الإيغال في السير وهو السرعة لأنه يدخل السائر في المكان الذي يقصده بسرعة فكأن المتكلم قد تجاوز حد المعنى الذي هو آخذ فيه وبلغ زيادته عن الحد. ينظر التحرير والتحبير ٣٩/١.

(٣) ينظر المفردات في غريب القرآن ٦٧١.

(٤) ينظر تفسير ابن كثير ٣٨١/٣.

(٥) ينظر تفسير البغوي ١٩٤/٦.

فقصت أثره فبصرت[١].

فهي تتبعت أثره عندما ألقي في اليم، فرأته من بُعد، ولم تقرب منه لئلا يعلم أنها منه بسبيل، فكانت تمشي على شاطئ النهر وتلاحقه النظر، لتعرف مستقره، حتى رأته وقد دخل إلى قصر فرعون.

ومعنى ذلك أن هناك تقديماً وتأخيراً في الآيات، ولذلك قال ابن عاشور "ظاهر ترتيب الأخبار أنها على وفق ترتيب مضامينها في الحصول، وهذا يرجح أن يكون حصول مضمون ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ﴾ سابقا على حصول مضمون ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾، أي قالت لأخته ذلك بعد أن اطمأن قلبها لما ألهمته من إلقائه في اليم، أي لما ألقته في اليم قالت لأخته: انظري أين يلقيه اليم؟، ومتى يستخرج منه؟، وقد علمت أن اليم لا يلقيه بعيدا عنها؛ لأن ذلك مقتضى وعد الله برده إليها"[٢]، واستعمل القص في تتبع الذات بالنظر فلذلك عدي إلى ضمير موسى دون ذكر الأثر[٣].

فلفظة ﴿قُصِّيهِ﴾ بلفظها ومعناها وجرسها تدل على معان متعددة، فأخته تتبع أثره؛ حتى تعلم خبره، وتبحث عنه، وتنظر إليه اختلاسًا من بعد، وهم لا يشعرون.

والتعبير ببصر في قوله ﴿فَبَصُرَتْ ﴾ له دلالته، وكل لفظة في القرآن دقيقة في وضعها وسياقها، وموضعها من الجملة.

فمعنى بصر بالشيء صار ذا بصر به، أي باصراً له، فهو يفيد قوة الإبصار، أي قوة استعمال حاسة البصر، وهو التحديق إلى المبصر، ف(بصر) أشد من (أبصر). فالباء الداخلة على مفعوله باء السببية؛ للدلالة على شدة العناية برؤية المرئي، حتى كأنه صار باصراً بسببه[٤].

وهذا مما يدل على شدة العناية به، إذ ما خرجت أخته إلا لتتبع أثره، ومعرفة ما يصير إليه أمره، ورأته من بعد، "ولم تقرب منه لئلا يعلموا أنها أخته"[٥].

والتَّعبيرُ عنها بأخوَّتِه -عليه الصَّلاة والسَّلام- دونَ أنْ يقال: لبنتِها للتَّصريحِ بمدار المحبَّةِ الموجبةِ للامتثالِ بالأمرِ[٦].

وفى كلمة ﴿فَبَصُرَتْ ﴾ :نرى أن قلب تلك الأخت كان أمام عينيها، فلم تبحث عن أخيها بعينيها، ولم تتسمع أخباره بأذنيها، وإنما كانت كيانا من الحذر والحيطة، بحيث تقرأ الحركات والإشارات، وتتأول الرموز والألغاز"[٧] وهذه الآية تجسد شخصية الأخت الرحيمة، التي تبحث عن أخيها بأمر من أمها، التي فقدت وليدها تنفيذًا لأمر الله.

والعبد مع معرفته بأن قضاء الله وقدره

(١)ينظر روح المعاني ٢٦٠/١٠.
(٢) التحرير والتنوير ٢٤/٢٠.
(٣) ينظر السابق ٢٤/٢٠.
(٤) ينظر السابق ٢٤/٢٠.
(٥) التسهيل ١٣٥١/١.
(٦)ينظر إرشاد العقل السليم ٢٢٢/٥.
(٧) التفسير القرآني ٣١٧/١٠.

ووعده نافذ، فإنه لا ينبغي له أن يهمل الأسباب المطلوبة منه؛ ولا يكون ذلك منافياً لإيمانه بخبر الله. وهذا ما شاهدناه من فعل أم موسى، فإن الله وعدها بأن يرده إليها؛ ومع ذلك فإنها اجتهدت في رده، وأرسلت أخته لتبحث عنه وتطلب خبره [١].

ويلاحظ الترابط العجيب بين الأحداث، كما هو حاصل في الجمل والعبارات، فهذه الآيات تبين تدبير الله تعالى، وحفظه لأوليائه وصالحي عباده، وتجلى ذلك في الوحي إلى أم موسى بإرضاعه، وإلقائه في البحر، والتقاط آل فرعون له؛ ليتربى في بيته عزيزاً مكرماً، وهم لا يشعرون أن أخته كانت تقصه، وتتعرف على حاله، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فيه قولان:

أحدهما: وهم لا يشعُرون أنَّه عدُّو لهم، قاله مجاهد.

والثاني: لا يشعُرون أنَّها أختُه، قاله السدي[٢].

أو لا يشعرون بحالها وغرضها[٣].

فهُمْ لا يَشْعُرُونَ "ما جرى به القلم، ومضى به القدر، من وصوله إلى ما وصل إليه، وهذا من لطفه تعالى، فإنهم لو شعروا، لكان لهم وله شأن آخر"[٤].

فأخته أبصرته على وجه، كأنها مارة لا قصد لها فيه، فكان لديها نظرة ثاقبة في عواقب الأمور، وقالت كلاماً لا يثير حولها شبهة.

"وهذا من تمام الحزم والحذر، فإنها لو أبصرته، وجاءت إليهم قاصدة، لظنوا بها أنها هي التي ألقته، فربما عزموا على ذبحه، عقوبة لأهله"[٥].

وفي تقديم الضمير ﴿وَهُمْ﴾ على الخبر الفعلي ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ إشارة إلى تقوية للحكم وتأكيد له، وكما أن حذف متعلق الفعل ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ يدل على معنى العموم؛ لأن الشعور علم دقيق يختلف عن العلم، فهي تنظر إليه وكأن الأمر لا يعنيها، إذا لو شعروا؛ لتغير الحال، وهذا من كياستها؛ لذا اختلف في تأويله، والسياق يحتمل كل ما قيل في معناه وهذا من جملة عطاءات النظم القرآني إذ يتسع اللفظ لأكثر من معنى والله أعلم.

---

(١) ينظر تفسير السعدي ٦١٨.

(٢) ينظر زاد المسير في علم التفسير ٤٢/٥، وينظر البحر المحيط ٢٩٠/٨.

(٣) مفاتيح الغيب ٥٨٢/٢٤.

(٤) تفسير السعدي ٦١٢.

(٥) تفسير السعدي ٦١٢.

تهيئة الأسباب لرد موسى -عليه السلام- لتحقيق الوعد لأمه:

ثم شرع سبحانه يذكر أسباب رده إلى أمه فقد امتنع من المراضع؛ ليجعلهم يحتارون به، وكانت أخته ترقبه من بعد، فلما رأتهم قد حاروا بأمره في أمر الرضاعة، حانت مرحلة إعادته إلى أمه، فقالت لهم: سوف أدلكم على أهل بيت يعتنون به، فرجع إلى أمه؛ تحقيقا لوعد الله.

قال سبحانه: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل قصّها أثره. والمراضع جمع مرضع بضم الميم وكسر الضاد. وهي المرأة التي ترضع، وترك التاء لاختصاصه بالنساء. أو جمع مرضع بفتح الميم مصدر ميميّ، جمع لتعدد موادّه. أو اسم موضع الرضاع، وهو الثدي[1]. وهذا من عناية الله به، إذ لو قبل أن يرضع من أي امرأة لما رجع إلى أمه، ولكن كانت عناية الله وحفظه تحوطه، ونلاحظ الدقة في التعبير القرآني بقوله ﴿مِن قَبْلُ﴾ لتأخذ العبارة دقتها في تناسب النظم وتماسكها في المكان المناسب الملائم لها؛ لتفيد أن المنع مختص بفترة معينة، وهي فترة غيابه عن أمه، وينتفي حين عودته لها.

والمراد بالتحريم المنع "قيل مكث موسى ثماني ليال لا يقبل ثدياً، قال ابن عباس إن امرأة فرعون كان همها من الدنيا أن تجد من ترضعه، كلما أتوا بمرضعة لم يأخذ ثديها"[2].

فالتحريم هنا مجاز عن المنع، فإن من حرم عليه شيء فقد منعه، ولا يصح إرادة التحريم الشرعي؛ لأن الصبي ليس من أهل التكليف، ولا دليل على الخصوصية[3].

والتحريم المقصود به هنا: المنع، وهو تحريم تكويني، أي قدرنا في نفس الطفل الامتناع من التقام أثداء المراضع وكراهتها؛ ليضطر آل فرعون إلى البحث عن مرضع يتقبل ثديها؛ لأن فرعون وامرأته حريصان على حياة الطفل، ومن مقدمات ذلك أن جعل الله إرضاعه من أمه. [4]. وقد استعمل التحريم في معنى المنع؛ ليدل على شدة الرفض، وعدم الاقتراب من ثدي غير ثدي أمه.

فقد قَالَتْ أخته عند رؤيتِها لعدمِ قَبُولِه المرضعات، واعتناءَ فرعونَ بأمرِه وطلبَهم من يقبلُ ثديَها ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾. وعرضت سعيها في ذلك بطريق الاستفهام المستعمل في العرض؛ تلطفاً مع آل فرعون، وإبعاداً للظنة عن نفسها[5].

"رُوي أنَّ هامان لمَّا سمعَه منها قال: إنَّها لتعرفُه وأهلَه فخذُوها حتَّى تخبرَ بحالِه فقالتْ: إنَّما أردتُ وهم للملكِ ناصحُون فأمرَها فرعونُ بأنْ تأتيَ بمَن يكفلُه فأتتْ بأمِّه ومُوسى على يدِ فرعونَ يبكِي، وهو يُعلله، فدفعَه إليها فلمَّا وجدَ ريحَها استأنسَ، والتقمَ ثديها، فقالَ: مَن

(١)ينظر تفسير القاسمي ٤٦٩٨/١٣.
(٢) تفسير الخازن ٣٥٩/٣.
(٣) روح المعاني ٢٦٠/١٠.
(٤) ينظر التحرير والتنوير ٢٥/٢٠.
(٥) ينظر السابق نفسه ٢٥/٢٠.

أنتِ منه فقد أبَى كلَّ ثديٍ إلا ثديكِ فقالتْ: إنِّي امرأةٌ طيبةُ الريح، طيبة اللبنِ، لا أُوتى بصبيَ إلا قبِلني، فقرَّره في يدِها، وأجرى عليها، فرجعتْ إلى بيتِها من يومِها"[١]وسبحان الله وقى الله موسى بفرعون.

والفاء في قوله {فقالت} فاء فصيحة تؤذن بجملة مقدرة، أي فأظهرت أخته نفسها كأنها مرت بهم عن غير قصد. وإنما قالت ذلك بعد أن فشا في الناس طلب المراضع له. أي فدخلت عليهم فقالت. [٢]، وربطت الفاء وحققت الانسجام دون أن نشعر بتلك المحذوفات.

والتعبير على أهل بيت دون امرأة "إشارة إلى أن المراد امرأة من أهل الشرف تليق بخدمة الملوك ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ لا يقصرون في خدمته وتربيته"[٣].

ومعنى {يَكْفُلُونَهُ} أعطاه إليه ليكفله ويرعاه[٤]والْكَفَالَةُ: الضّمان، تقول: تَكَفَّلَتْ بكذا، وكَفَّلْتُهُ فلانا[٥]، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية[٦].

وجاء التعبير بالجملة الاسمية دون الجملة الفعلية في قوله: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ "لقصد تأكيد أن النصح من سجاياهم، ومما ثبت لهم، فلذلك لم يقل: وينصحون له، كما قيل: ﴿يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ ؛ لأن الكفالة أمر سهل بخلاف النصح والعناية"[٧].

والنُّصْحُ: تَحَرِّي فِعْلٍ أو قَوْلٍ فيه صلاحُ صاحبِ، وهو من قولهم: نصحت له الود، أي: أخلصته، ونَاصِحُ العَسَلِ: خَالِصُهُ[٨].

وتعليق ﴿لَهُۥ﴾ بـ ﴿نَٰصِحُونَ﴾ ليس على معنى التقييد؛ بل لأنه حكاية الواقع[٩].

وعلى هذا المعنى أن النصح من صفاتهم وسجاياهم، فهم قد تميزوا بالنصح، وهو سمة من سماتهم، فيخلصون له، كما يخلصون لغيره، فهو صفة ثابتة فيهم، وليس حادثاً فيهم، بل صفة راسخة لهم.

وفي تقديم الجار والمجرور له على اسم الفاعل ﴿نَٰصِحُونَ﴾ معنى الاختصاص والعناية ويفيد الثبوت والاستمرار.

و لما قالت أخت موسى ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾.

استنكروا حالها وتفرّسوا أنها قرابتُه ، فقالت: إنَّمَا أَرَدْتُ، وهم للملك ناصِحُونَ، فتخلَّصَت منهم، فخلصت بذلك من الشر الذي يجوز لمثله الكذب، وأحسنت، وليس ببدع؛ لأنها من بيت النبوة فحقيق بها ذلك، وهذا يُسمى عند أهل البيان الكلام الموجَّه[١٠] وهذا الكلام الذي قالته من باب التورية؛ لتتخلص من هذا الموقف دون أن ينالها أذى، فقد أرادت النصح للطفل، وتظاهرت بأن النصح كان لفرعون ومن حوله.

---

(١) إرشاد العقل السليم ٢٢٢/٥.

(٢) روح المعاني ٢٦٠/١٠، وينظر التحرير والتنوير ٢٥/٢٠.

(٣) ينظر روح المعاني ٢٦٠/١٠.

(٤)ينظر المعجم الوسيط ٧٩٣/٢.

(٥)ينظر المفردات ٤٨٧.

(٦) روح المعاني ٥٠٣/٨.

(٧) التحرير والتنوير ٢٥/٢٠.

(٨) ينظر المفردات ٥٥٠.

(٩)ينظر التحرير والتنوير ٢٥/٢٠.

(١٠)ينظر اللباب ١/ ٣٩٩٥، وينظر روح المعاني ٢٦٠/١٠.

تحقق الوعد:

أم موسى –عليه السلام– صبرت صبراً عظيما على فقد وليدها، فكان الجزاء من الله أن فرج شدتها، قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِۦ كَىْ نَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة القصص ١٣)، يعني ما وعدت به مما أوحي إليها من قوله: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[١]، "ووعد الله المشار إليه هو الذي أوحاه إليها أولاً"[٢]، ودخلوا به على أمه، ففرحت به فرحاً شديداً، يقول ابن كثير "فأعطته ثديها فالتقمه، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، وذهب البشير إلى امرأة فرعون، فاستدعت أم موسى وأحسنت إليها، وأعطتها عطاءً جزيلاً، فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية، قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً، في عز وجاهٍ ورزقٍ دار، ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل، فسبحان الذي بيده الأمر ما شاء كان، ومالم يشأ لم يكن، الذي يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجاً، وبعد كل ضيقٍ مخرجاً"[٣].

وإنا لنلمس عظم تدبير الله بخلقه، وخاصة بأوليائه وأحبابه، فقد أعاد لها ابنها لترضعه وتربيه أمام ناظريها، دون خوف أو وجل، بل وتتقاضى أجراً على ذلك، وهي آمنة من كيد الكائدين ومكر الماكرين.

والله الذي أخرج اللبن من بين الفرث والدم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين أخرج موسى من بين فرعون وهامان وجنودهما[٤].

والمقصود من رده إليها حصول السرور لها، وزوال الحزن عنها؛ لأنه متى حصل السرور وجب زوال الغم لا محالة، فهي تقر عينها بسبب وصوله إليها، فيزول عنها الحزن بسبب عدم وصول لبن غيرها إلى باطنه[٥].

وفي ذكر كلمة ﴿فَرَدَدْنَاهُ﴾ مشاكلة لقوله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ﴾ وفي هذا تحقيق لتمام الوعد، وكما وعدها ربها –تبارك وتعالى– في بداية أمرها.

ثم يبين –تبارك وتعالى– علة الرد بقوله: ﴿كَىْ نَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ فإن حصول السرور، وتمام الحبور، بزوال أسباب الهموم، وقد زالت تلك الأسباب برد موسى عليه السلام إلى أمه فقرت عينها بذلك، وزاد النظم القرآني في معنى ما حصل لأم موسى بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ عطف على قوله: ﴿نَقَرَّ﴾، وفي استعمال الفعل المضارع دليل على تجدد وحدوث واستمرار ذلك لها.

وقوله تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي جميع وعده، ومن جملة ذلك ما وعدها سبحانه بقوله: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ (سورة القصص ١٣)، وقوله: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ "أي فيما كان وعدها من أن يرده إليها، ولقد كانت

(١) ينظر الزجاج معاني القرآن ١٣٥/٤.
(٢)المحرر الوجيز ٢٧٩/٤.
(٣) تفسير ابن كثير ٢٠٢/٦.
(٤) ينظر التفسير الواضح ١٧٧/٢.
(٥) ينظر الرازي ٤٨/٢٢.

عالمة بذلك، ولكن ليس كالعيان، فتحققت بوجود الموعود"[١].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي أكثر آل فرعون لا يعلمون بذلك، بل كانوا في غفلة عن القدر وسر القضاء، أو أكثر الناس لا يعلمون بذلك، أو لا يعلمون أن الله وعدها أن يرده إليها. [٢] فهذا الوعد حق لاريب فيه، والله لا يخلف الميعاد، والله سبحانه أمره بين الكاف والنون، وإذا أراد شيئاً هيأ الأسباب، ولم تأتِ متتابعة؛ بل جاءت متدرجة، حتى عاد إلى أمه.

وقد فرحت، واستبشرت بعودته إليها، والأم يحترق قلبها لابنها، فرغم أن الله طمأنها بعودته، لكن عين الأم لن تقر أبداً حتى ترى ابنها أمامها، وهذا ما كان، فقد عاد موسى -عليه السلام- إلى أمه كما وعدها الله؛ لتقر عينها، ولا تحزن، ولتعلم أن وعد الله حق.

فقد قال تعالى في سورة القصص: ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (سورة القصص ١٣).

وقال تعالى في سورة طه: ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ﴾ (سورة طه ٤٠).

عاد موسى -عليه السلام- إلى أمه، وبعودته تحققت البشارة الإلهية الأولى إلى أم موسى حين وعدها برده وإعداده لأعظم مهمة، وهي مهمة الرسالة التي أعدها المولى -عز وجل- وهيأه لحملها قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (سورة القصص ١٤)، ويبقى المقصود الأعظم من الرد، وهو "الغرض الديني ولكن الأكثر لا يعلمون أن هذا هو الغرض الأصلي، وأن ما سواه من قرة العين وذهاب الحزن تبع"[٣].

وبهذا تتحقق البشارة الثانية لموسى -عليه السلام- ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ (سورة القصص ٧).

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: حُكْمَ الله في أفعاله وعواقبها المحمودة، التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة، فربما يقع الأمر كريها إلى النفوس، وعاقبته محمودة في نفس الأمر، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ﴾[٤].[البقرة:٢١٦]

وقيل: تعريض بما فرط من أمه، حين سمعت بوقوعه في يد فرعون من الخوف والحيرة[٥].

ولاشك أن ما عراها من ذلك كان من مقتضيات الجبلة البشرية، ولا تلام في هذا؛ لأنه خوف طبيعي لا يؤثر في إيمانها.

---

(١) التفسير الكبير ٢٣١/٢٤.

(٢) ينظر فتح القدير ١٦١/٤.

(٣) التفسير الكبير ١٩٨/٢٤.

(٤) ينظر تفسير ابن كثير ٢٢٤/٦.

(٥) ينظر روح المعاني ٢٦١/١٠.

وفي الآية "تنبيه على أن العطية الإلهية تصل إلى العبد –وإن طال العهد – إذا جاء أوانها، فلطالب الحق أن ينتظر إحسان الله – تعالى–، ولا ييأس منه، فإن المحسن لا بد وأن يجازى بالإحسان، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما جزينا موسى وأمه ﴿نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ على إحسانهم، وفيه تنبيه على أنهما كانا محسنين في عملهما، متقيين في عنفوان عمرهما، فمن أدخل نفسه في زمرة أهل الإحسان جازاه الله بأحسن الجزاء"[١].

وبهذا يتبين أن عاقبة ما أمر الله به خير لعبده، وإن لم يتبين له ذلك في أول الأمر، ومن توكل على الله حفظه من كل شر، فقد ظهرت العواقب الحميدة لكل هذا الابتلاء، فقد وقع ابنها في قبضة عدوه، ومع ذلك عاد إليها، رغم تلك الأهوال التي مر بها، وألطافه –سبحانه– لا تدركها العقول، وأنه سبحانه يدافع عن عباده، ويرد عنهم كيد الأشرار، ومن كان الله معه فلن يضيع. وهذا ما كان من أمر موسى –عليه السلام–.

قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، ومعنى (بلغ) يقال: بلغ الشجر بلوغا وبلاغا حان إدراك ثمره، والغلام أدرك، والأمر وصل إلى غايته[٢] وبلوغ الأشد والاستواء معناه بلوغ سنٍ معينة قال الكلبي: الأشد ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنة. وقال مجاهد وغيره: ثلاث وثلاثون سنة، وَاسْتَوَى قيل: بلغ أربعين سنة[٣]، والأشد: شدة البدن واستحكام أمره وقوته، واستوى: معناه تكامل عقله وحزمه[٤] والمعنى بَلَغَ أَشُدَّهُ من القوة والعقل واللب، وذلك نحو أربعين سنة في الغالب[٥]، فقد اكتملت فيه تلك الأمور، وهذه هي السن التي يكتمل فيها الإنسان وهي كما يرى السعدي أنها أربعون سنة في الغالب بدليل قول الله –تعالى–: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ (سورة الأحقاف ١٥)، ويقول الرازي: "ويروى أنه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين سنة، والحكمة فيه ظاهرة؛ لأن الإنسان يكون إلى رأس الأربعين قواه الجسمانية من الشهوة والغضب والحس قوية مستكملة، فيكون الإنسان منجذباً إليها، فإذا انتهى إلى الأربعين أخذت القوى الجسمانية في الانتقاص والقوة العقلية في الازدياد، فهناك يكون الرجل أكمل ما يكون، فلهذا السر اختار الله تعالى هذا السن للوحي"[٦]ومعنى ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ أي: "حكمًا يعرف به الأحكام الشرعية، ويحكم به بين الناس، وعلمًا كثيراً[٧]"؛لذلك "فهو مؤيد بالحكمة تهيئة لنبوته، وإرهاصًا لرسالته"[٨].

(١) روح البيان ٢٨٣/٦.
(٢) ينظر المعجم الوسيط ٦٩/١.
(٣) ينظر البغوي ١٩٦/٥.
(٤)ينظر تفسير الوسيط ١٩٠٧/٣.
(٥)ينظر تفسير السعدي ٦١٣.
(٦) الرازي ١٩٩/٢٤.
(٧) تفسير السعدي ٦١٣.
(٨) نظم الدرر ٥ / ٤٧٠.

فقد ألقى في اليم، ثم رد إلى أمه مكرّما معززًا، ثم كان له ما كان من الوجاهة في الدنيا والآخرة، وسنة الله ماضية في مجازاة المحسنين على إحسانهم، فهي سنة لا تتخلف ولذلك قال -سبحانه-: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، فهم محسنون، ولخلق الله محسنون، نعطيهم علمًا، وحكمًا، بحسب إحسانهم، ودلَّ هذا على كمال إحسان موسى -عليه السلام-(١).

وذكر الاستواء مع موسى -عليه السلام-، ولم يذكر مع غيره كما في يوسف -عليه السلام-، و﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ (يوسف ٢٢)، والاستواء: هو الاعتدال في السن، وكمال استحكامه، وبلوغه مبلغًا لا مزيد عليه(٢).

وهو تصوير بلاغي يدل على الاكتمال، والنضج، والقوة وتتابع الأفعال يدل على هذا ﴿بَلَغَ ١٤﴾ ، و﴿وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾، و﴿ءَاتَيۡنَٰهُ﴾.

وذكر مع موسى -عليه السلام- لما كان له من كمال البنية، واستحكام القوة، فقد أوتي بنية قوية، وهذا ما لم يكن ليوسف -عليه السلام- وهذا جاء ما يؤيده في سياق قصة موسى -عليه السلام- من وصفه "القوي الأمين" ومن ذكر وكزه للقبطي فقضى عليه ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ﴾ الآية، وهذا مما يرشح ذكر كلمة ﴿وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ مع موسى -عليه السلام- دون غيره من الأنبياء، والله أعلم.

(١) ينظر تفسير السعدي ٦١٣.

(٢) ينظر نظم الدرر ٥ / ٤٧٠.

المطلب الثاني: موازنة بين سورتي طه والقصص:

١- من خلال ما سبق تبين كيف تعرضت سورة القصص لقصة أم موسى -عليه السلام-، وتلك القصة وردت أيضًا في سورة طه، وهنا نلاحظ التنوع في طريقة العرض فسورة طه تميزت بالإيجاز في عرض القصة، في حين أن سورة القصص تميزت بالتفصيل للقصة، فهي سورة القصص، ولها من اسمها نصيب.

ففي سياق الحديث عن نعمه -سبحانه- على موسى -عليه السلام- قال سبحانه ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ جاء في سورة طه قوله -سبحانه-: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ (سورة طه ٣٧-٣٩)، فقد أبهم الوحي في سورة طه لتذهب فيه النفس كل مذهب، ففيه تهويل وتعظيم لهذا الوحي، كيف لا؟ وهو يتعلق بمصير موسى، ثم فسر هذا المبهم، فهو قذف في التابوت، ثم قذف في اليم، ثم أمر لليم بإلقاء موسى بالساحل، في حين أنه في سورة القصص جاء الوحي صريحًا بإرضاعه، ولم يذكر الإلقاء في اليم إلا عند الخوف عليه، في حين أنه هنا جاء الأمر بقذفه سريعاُ بعد قرب وقوع الخطر.

وهذه الآيات - كما نلاحظ - تتمة لسورة القصص، وبيان لبعض الأحداث التي لم ترد فيها، وكما هو معلوم أن القرآن يكمل بعضه بعضا، ويفسر بعضه بعضا، فقد تطوى بعض الأحداث في موضع، وتظهر في موضع آخر حسب المناسبة، وهذا ما كان فقد ورد في سورة طه بعض الأحداث التي لم ترد في سورة القصص، ومن ذلك أمر الله لأم موسى أن تضع وليدها في التابوت، وتلقي به في اليم، ولقد امتثلت أم موسى للأمر الإلهي، ووضعت وليدها موسى في التابوت بعد أن حضنته، وأرضعته.

ولم يرد الإرضاع في سورة طه اكتفاء بما ورد في القصص؛ لأن الحديث عن أم موسى في هذه السورة كان في سياق المنن التي مَنَّ الله -تعالى- بها على موسى -عليه السلام-، فالأحداث في سورة طه عن أم موسى كان حديثًا عنها، في حين أن سورة القصص كان الحديث معها، وفرق بين الخطابين، فاختلف الخطاب حسب السياق الذي ورد فيه ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ سورة القصص، و﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ سورة طه.

٢- يرى الشعراوي أن هناك وحيين لأم موسى: فالوحي الأول خاص بالرضاعة في مدة الأمان، أما الآخر فبعد أنْ خافت عليه أوحى إليها لتقذفه في اليم. وهذا أمر من الله -تعالى- لليمِّ أن يخرج الوليد سالماً إلى الساحل؛ فكأن الوحي الأول جاء تمهيداً لما سيحدث؛ لتستعد الأم نفسياً لهذا العمل، ثم جاء الوحي الثاني للممارسة والتنفيذ. لذلك اختلف أسلوب الكلام في الوحي الأول فجاء

رتيباً مطمئناً: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (سورة القصص ٧) هكذا في نبرة هادئة لأن المقام مقام نصح وتمهيد، لا مقام أحداث وتنفيذ، أما الوحي الثاني فيأتي في سرعة، وبنبرة حادة: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾[1] [طه: ٣٩] وهذا الرأي له وجاهته فالعَجلة في اللفظ تدلُّ على أن المقام مقام مباشرة للحدث فعلاً؛ ولذلك لم يأت في هذا الوحي الثاني ذِكْر لعملية الرضاعة؛ لأنه جاء للتنفيذ وبسرعة بعد اقتراب الخطر؛ ولذا نلحظ فرقًا بين النظم في السورتين، فنجد الأوامر تتلاحق، وتتعاقب في سورة طه مصحوبة بفاء التعقيب والسرعة ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ ، ﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ ، وليس كذلك في سورة القصص، بل نجد المدة والمهلة بين الأفعال ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ فإذا حصل الخوف ﴿فَأَلْقِيهِ﴾ فكان ترتيب الإلقاء على حصول الخوف، ولم يرد في سورة القصص ما يفعله اليم بالتابوت، ولكن جاء فيها ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ، وفي هذا إشارة إلى حفظ التابوت لموسى –عليه السلام– المتضمن أن يصل التابوت إلى الساحل، وينجو من الهلاك والغرق.

ثم إن في قوله تعالى–: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ كناية عن موصوف والمقصود به فرعون، ولما كان في هذا الأخذ ما يدعو إلى القلق والخوف، جاء قوله –تعالى–: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ اطمئنانًا، وثباتًا.

٣– بينت القصة المحبة التي ألقيت على موسى فهو قرة عين لكل من رآه، فكل من رآه أحبه، ولذلك كان من آثار هذه المحبة أن فرحت به امرأة فرعون، وعطفت عليه، وطلبت منه عدم قتله، فاستبقاه فرعون، فعاش في قصره معززاً مكرماً، آمناً مطمئناً، ولا عجب فهذه المحبة زرعت في القلوب؛ لأنها من الله و"للدلالة على أنها محبة خارقة للعادة؛ لعدم ابتداء أسباب المحبة العرفية من الإلف والانتفاع".[2]

ولم تذكر هذه المحبة في سورة القصص بصورة صريحة، لكنها جاءت صريحة في سورة طه ،كما قال –تعالى–: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ (سورة طه ٣٩) فكلمة ﴿مِّنِّي﴾ متعلقة بمحذوف وقع صفة لموصوف مؤكدة، لما في تنكيرها من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية، أي محبة عظيمة كائنة مني، قد زرعتها في القلوب، فكل من رآك أحبك بحيث لا يصبر عنك[3]؛ ولذلك قال ابن عباس: "أحب الله – تعالى – موسى، وحببه إلى خلقه قال عكرمة: ما رآه أحدٌ إلا أحبه"[4].

---

(١) ينظر تفسير الشعراوي ١/٣٨٠٤.

(٢) التحرير والتنوير ١١٨/١٦.

(٣) ينظر روح المعاني ٥/ ٥٠١.

(٤) ينظر تفسير البغوي ٥/ ٢٧٢.

وفي تنكير كلمة "محبة" تعظيم، وتفخيم، وتنويع، فهي محبة من نوع خاص، جعلها الله سبحانه وتعالى في كل من رأى موسى –عليه السلام–، وتقديم الجار والمجرور ﴿عَلَيْكَ﴾ لمزيد العناية به؛ لأن الخطاب مع موسى –عليه السلام–، وفي سياق الامتنان عليه.

وهذا ما جعل امرأة فرعون تطلب عدم قتله، وطلبها من فرعون أن تتخذه ولدا؛ ليعيش في بيت فرعون، وما علم فرعون أن هذا الطفل سيكون عدوه في المستقبل، والله ألقى محبته في نفوس الناس، فكل من رآه أحبه كما قال –سبحانه وتعالى–: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ ، ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ ، قال صاحب الكشاف: "روى أنه كانت على وجهه مسحة جمال، وفي عينيه ملاحة، لا يكاد يصبر عنه من رآه (عَلى عَيْنِي) لتربى ويحسن إليك، وأنا مراعيك وراقبك، كما يراعى الرجل الشيء بعينيه إذا اعتنى به، وتقول للصانع: اصنع هذا على عيني أنظر إليك؛ لئلا تخالف به عن مرادي وبغيتي"[1]، ومعنى ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ (سورة طه ٣٩) الصنع هو إجادة الفعل، وهو إشارة إلى نحو بعض الحكماء "إنّ الله –تعالى– إذا أحبّ عبدا تفقّده كما يتفقّد الصّديق صديقه".[2]

وفي قوله ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ كناية عن الرعاية الكاملة، والحفظ التام لموسى –عليه السلام– وفي اختيار مادة "الصنع، والتصنيع" ما يناسب كون رسولاً من عند الله تبارك وتعالى؛ لأن الصنع هو العمل بإتقان وتجويد؛ ولذا كان –عليه السلام– من أولي العزم من الرسل.

ونلحظ أن سورة طه اختصت بعناية الله لموسى –عليه السلام– منذ ألقته أمه في اليم، فكانت عناية الله تحوطه وترعاه منذ كان طفلاً حتى بلغ أشده، واختاره لحمل الرسالة؛ ولذا جاء في هذه السورة ما يؤيد هذا قال –سبحانه–: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ (سورة طه ١٣)، وفي آية أخرى في سياق المنن التي من الله بها على عبده: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ (سورة طه ٤١) ومعناها أي: اصطفيتك واجتبيتك رَسُولا لنفسي، أي: كما أريد وأشاء.[3] وفي مادة الافتعال ما يدل على القوة والإمكان في الفعل، ومما له مزيد عناية بتربية موسى –عليه السلام– وحفظه ودفع المضار عنه.

فوقى الله موسى من فرعون بفرعون، وجعل قصره حصناً منيعاً له، وكان الحب في قصره مدافعاً عنه، وهكذا القرآن يفسر بعضه بعضاً، فما يجمل في موضع، يفصَّل في آخر. والله أعلم.

٤– جاء في سورة طه القذف في التابوت، وفي سورة القصص الإلقاء في اليم، فهل هناك فرق بين اللفظين؟

الإلقاء "ألقى الشيء: طرحه، واللّقي: الشيء الملقى، والجمع إلقاء، واللقى كل شيء مطروح

(١) الكشاف ٦٣/٣.

(٢) ينظر المفردات في غريب القرآن ٤٩٣.

(٣) ينظر تفسير ابن كثير ٢٩٤/٥.

متروك كاللقطة والألقية ما ألقي"[١].

والقذف "قذف بالشيء قذفاً، فانقذف: رمى، وقذفه به أصابه"[٢]. فهو يسرع في وضعه بقوة كهيئة من يقذف حجرًا، ونحوه.

وسبحان الله هناك دقة في التعبير تناسب كل سياق، ففي سورة القصص جاءت لفظة ألقى، وفي سورة طه جاءت لفظة القذف؛ لاختلاف الخطابين ففي سورة القصص التهيئة والإعداد، وفي سورة طه جاءت مرحلة التنفيذ وكما هو معلوم، فإن الإلقاء هو رمي الشيء بلين ورفق من أعلى إلى أسفل، وأما القذف فهو يوحي بالشدة والقوة، ومعناه رمي الشيء بقوة وعنف، وما أحسن ما قاله الشعراوي مفرقا بين الخطابين في السورتين "فالكلام هنا لإعداد الأم وتهيئتها لحين الحادثة، وفَرْق بين الخطاب للإعداد قبل الحادثة، والخطاب حين الحادثة، فسوف يكون للأمومة ترتيب ووسائل تساعد على النجاة، صنعتْ له صندوقًا جعلت فيه مَهْدًا ليّنًا واحتاطتْ للأمر، ثم يطمئنها الحق – سبحانه– على ولدها: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ فسوف نُنجيه؛ لأن له مهمة عندي ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

فإذا ما جاء وقت التنفيذ جاء الأمر في عبارات سريعة متلاحقة: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ (طه: ٣٩)؛ لذلك تجد السياق في الآية الأولى هادئًا رتيبًا يناسب مرحلة الإعداد، أما في التنفيذ فقد جاء السياق سريعًا متلاحقًا يناسب سرعة التنفيذ"[٣]، وكل لفظ جاء في موضعه فلفظة الإلقاء تناسب الهدوء والوضع، ولفظة القذف تناسب السرعة والقوة، وسرعة التنفيذ؛ ولذلك قال ابن عاشور "القذف هنا مجاز عن المسارعة إلى الوضع من غير تمهل لشيء أصلاً إشارة إلى أنه فعل مضمون السلامة، كيفما كان"[٤]، ونلاحظ أن فعل ﴿ٱقْذِفِيهِ﴾ يلقي ظل الشدة؛ لأن جرس فعل "قذف" يلقي هذا الظل، ويعطي هذا المعنى، فهي تقذف ابنها الوليد في التابوت قذفاً ولا تضعه وضعاً، ثم تقذف التابوت في اليم قذفاً أيضاً[٥].

وتكمن قوة العبارة وتأثيرها في حلول اللفظة في موقعها، فقذف يوحي بالشدة في الموضعين، وبعد زوال الخطر جاء التعبير بالإلقاء، ولعل التعبير بالقذف فيه إيحاء بأن تستجيب الأم بسرعة لأمر ربها؛ حتى لا تنازعها نفسها في الإبقاء عليه معها، فتقذفه بسرعة استجابة للأمر، وتنفيذًا للطلب، والتعبير بالإلقاء ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ يوحي بالهدوء؛ لأنه ابتعد عن الخطر.

فالقذف يتطلب السرعة دون إبطاء؛ ولذلك اختلف التعبير في سورة القصص عن سورة طه فذكر هنا التابوت؛ لأن القذف يتطلب

---

(١) لسان العرب ٢٥٣/١٥.

(٢) لسان العرب٢٧٦/٩-٢٧٧.

(٣) تفسير الشعراوي ٥٦٧٤/١.

(٤) ينظر التحرير والتنوير ١١٦/١٦.

(٥) ينظر القصص القرآني عرض أحداث وتحليل وقائع٢٨٦/٢-٢٨٧.

السرعة، في حين أن الإلقاء يتطلب الهدوء. والإلقاء موجه إلى الأم التي يتطلب اللطف معها، مع أن الخوف لم يقع بعد، في حين أن القذف جاء بعد الأمر بالتنفيذ، بعد وقوع الخوف والخطر.

ونلحظ بعد زوال الخطر والخوف اختلاف اللفظ، فجاء التعبير بالإلقاء ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ (سورة طه ٣٩) جزاء أخرج مخرج الأمر، كأن اليم هو المأمور[١] وجيء بصيغة الأمر مبالغة إذ الأمر أقطع الأفعال وآكدها[٢]، ولام الأمر في قوله ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ دالة على أمر التكوين، أي سخرنا اليم لأن يلقيه بالساحل، ولا يبتعد به إلى مكان بعيد، والمراد ساحل معهود[٣] والأمر هنا بمعنى الخبر أي فيلقيه[٤].

والتعبير بصيغة الأمر للخطاب الإلهي معناه أن الله تكفل بذلك، وأمر الله نافذ، فكأنه يقول لها أسرعي بتنفيذ الأمر الذي أوحيته إليك، فالأمر محسوم عندنا، فاليم يؤمر بإلقائه بالساحل المعهود لا يتعداه، وكأنه عاقل يمتثل الأمر ويطيع، وتلك مشيئة الله، وهاهنا مجاز عقلي بإسناد الإلقاء إلى اليم يؤمر فيستجيب.

وهذا التنويع بين فعلي الإلقاء والقذف يناسب المقام الذي ورد فيه، وهذا ناتج من الدقة في وضع اللفظة واختيارها في المكان الملائم لها، ولا شك أن اللفظة المختارة في موضعها تسهم في أداء المعنى الذي يراد تقريره –والله أعلم–.

٥– قال تعالى في سورة طه ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ ومعناها أن فرعون عدو لله –تبارك وتعالى– وعدو لموسى –عليه السلام–، وقال –سبحانه وتعالى– في سورة القصص ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ ومعنى الآية أن موسى –عليه السلام– سيكون عدوًا لهم في دينهم وحزنًا عليهم، بما سينالهم منه من مكروه، حيث سيكون هلاكهم على يديه.

وتكرير العدو للمبالغة والتصريح بالأمر، والإشعار بأن عداوته له مع تحققها لا تؤثر فيه ولا تضره، بل تؤدي إلى المحبة، فإن الأمر مما هو سبب للهلاك صورة من قذفه في البحر، ووقوعه في يد عدو الله تعالى وعدوه مشعرًا بأن هناك لطفًا خفياً مندرجاً تحت قهر صوري[٥].

وقد يظهر أن بين الآيتين نوع من التكرار؛ لذلك قال الشعراوي مفنداً ذلك بقوله: "ومسألة العداوة هذه استغلها المشككون في القرآن واتهموه بالتكرار، والمتأمل في الآيتين يجد أن العداوة في الآية الأولى من جانب فرعون لموسى وربه تبارك وتعالى، أما العداوة في الآية الثانية فمن جانب موسى لفرعون، وهكذا تكون العداوة متبادلة، وهذا يضمن

(١) ينظر جامع البيان ٣١/٢٠.
(٢) ينظر الفتوحات الإلهية ٦٨/٥.
(٣) ينظر التحرير والتنوير ١١٧/١٦.
(٤) ينظر الفتوحات الإلهية ٦٩/٥.

(٥) ينظر إرشاد العقل السليم ٤ / ٣٥٤.

شراستها واستمرارها، وهذا مُرَاد في هذه القصة. أمّا إنْ كانت العداوة من جانب واحد، فلربما تسامح غير العدو، وخَجِل العدو فتكون المصالحة. والعداوة بين موسى وفرعون ينبغي أن تكونَ شرسة؛ لأنها عداوة في قضية القمة، وهي التوحيد"[١]؛ لذلك جاء في سورة القصص النص على أن موسى سيكون عدوًا وسببًا في حزنهم، وقد جاء التعبير متناسبًا مع التفصيل الذي تتميز به سورة القصص، وفي سورة طه نص على عداوة فرعون لموسى وربه تبارك وتعالى؛ لتتناسب مع موضوع الدعوة الذي تميزت به هذه السورة؛ لأن فرعون ادعى الألوهية، وجاء موسى لإبطالها، ودعا إلى التوحيد، فهذا الخطاب يتناسب مع سياق السورة؛ لتثبيت موسى –عليه السلام– في دعوته؛ لأن الحديث هنا جاء في سياق المنن والنعم التي مَنَّ الله بها عليه –والله أعلم–.

٦– قال تعالى ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ أي: رددناك، وقال في موضع آخر ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ وهو كقوله ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ أي: ردوني إلى الدنيا[٢] فهل هناك فرق بين لفظتي الرجوع والرد في السورتين؟.

٧– الرجوع يقال لمن ذهب من مكان، وهو يعلم رجوعه، ويكون العودة من مهمة معينة كان يقوم بها موسى فرجع إلى أمه، في حين أن الرد يطلق على من ذهب، وليس في ذهنه العودة؛ لكنه أجبر عليها، فهي حالة استحقاقية، لا بدَّ أن تكون ولذلك لا بُدّ من عودة موسى إلى حضن أمّه.. كي تقرّ عينها.. و لا تحزن. ولذلك يرى الكرماني أن لفظ الرجع ألطف لذلك خص بطه، في حين أن لفظ الرد خص بالقصص تصديقا لقوله: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾[٣]، وكل لفظ جاء مناسباً لسياقه الذي ورد فيه.

٨– وبهذا يكون كل لفظ مناسبًا لسياقه الوارد فيه، فلفظ الرجوع جاء في سياق سورة طه؛ لأن السياق للامتنان وإظهار الإنعام، وناسب في سورة القصص لفظ "الرد" ليشاكل الوعد في قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ –والله أعلم–.

٩– في السورتين برزت شخصية الأخت ودورها في نجاة موسى –عليه السلام–؛ لأن نجاته وسلامته أمر مصيري فقد جاء ذكرها في السورتين فقد جاء في سورة طه ﴿ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: مِنْ كَوْنِ أُخْتِهِ مَشَتْ إِلَيْهِمْ؛ للتعرف على خبره؛ وماذا حصل له أوضحه الله عز وجل في سورة القصص "فَبَيَّنَ أَنَّ أُخْتَهُ الْمَذْكُورَةَ مُرْسَلَةٌ مِنْ قِبَلِ أُمِّهَا لِتَتَعَرَّفَ خَبَرَهُ بَعْدَ ذَهَابِهِ فِي الْبَحْرِ، وَأَنَّهَا أَبْصَرَتْهُ مِنْ بَعْدُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِذَلِكَ. وَأَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ غَيْرَ أُمِّهِ تَحْرِيمًا

(١) تفسير الشعراوي ١/ ٥٦٧٥.

(٢) تفسير الرازي ٢٢/٤٨.

(٣) أسرار التكرار سورة طه ٧٠.

كَوْنِيا قَدَرِيًّا"[1]، فذكر الأخت يبين الدور البارز الذي قامت به في سلامته، ولذلك قالت كلاماً يدل على نظرة ثاقبة في عواقب الأمور، و عقل حصيف لا يثير حولها شبهة، فورت بكلامها، وتغلبت على الموقف دون أن تلجأ للكذب، حينما قالت ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾ وقصدت موسى –عليه السلام– وهم يحسبونه فرعون.

١٠– وفي سورة طه جاء التعبير بالفعل المضارع في الحالتين بقوله: ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾ لحكاية الحال الماضية[2].

١١– فقوله تعالى: ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ ﴾ هو استجابة لقول أمها في سورة القصص فيما حكاه القرآن ﴿قُصِّيهِ﴾ ، وصورة المشي في تؤدة وسكينة تناسب الموقف حتي لا يراها أحد، أو يشعر بها؛ ولذلك عبر النظم القرآني بلفظة ﴿ تَمْشِيٓ ﴾ دون تسرع أو تهرول؛ لأن الإسراع أو الهرولة مظنة أن يطلع عليها القوم ويعرفوا ما وراءها، وفي نظم السورتين عناية بضمير موسى –عليه السلام–؛ لأنه مركز القصة، ففي القصص ﴿لِأُخْتِهِۦ﴾ ، و ﴿قُصِّيهِ﴾ ، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾، وفي سورة طه ﴿ أُخْتُكَ﴾، ﴿فَرَجَعْنَاكَ﴾ ، ﴿أُمِّكَ﴾ –والله أعلم–.

وخلاصة ما انتهينا إليه من اختلاف النظم في السورتين أن بداية القصة في كلتا السورتين متشابهة، فقد بدأت بالوحي، وهناك تنوع في الذكر، وطريقة العرض، ففي سورة القصص جاءت أحداثها مفصلة وظهرت فيها شخصية أم موسى بارزة، مؤثرة في الأحداث وتتابعها وتصاعدها، ساعد على إبراز هذه الأحداث أساليب بلاغية منوعة، شملت علوم البلاغة الثلاثة (المعاني، البيان، البديع) وقد ظهرت جلية واضحة في موضعها من البحث، غير أن سورة طه جاء الحديث فيها عن أم موسى مقتضباً وموجزاً في ألفاظه وتراكيبه؛ اكتفاء بما ورد في سورة القصص، وتناسباً مع سياق سورة طه الذي كان في سياق تعداد المنن على موسى عليه السلام، فكأنها ذكرت عرضاً تذكيراً بمنةٍ من جملة المنن على موسى –عليه السلام– كما أن سمات القصة فيها متسارعة متلاحقة، تتناسب مع السياق الذي ذكر قبل، فهي تتميز بالإيجاز، والأوامر السريعة.

---

(١) أضواء البيان ٤/١٠.

(٢) ينظر الفتوحات الإلهية ٥/٦٩.

الخاتمة:

وبعد هذه الجولة الإيمانية في هذه القصة العجيبة يمكن أن نستخلص بعض النتائج ومنها ما يلي:

١. أن القصص القرآني كل خبر أخبر به الله –تعالى– رسوله محمداً –صلى الله عليه وسلم– بحوادث الماضي، يقصد فيه العبرة والهداية، سواء كان بين الرسل وأقوامهم، أو بين الأمم السابقة أفراداً وجماعات.

٢. الغاية من علم البلاغة فهم القرآن، وإدراك إعجازه، ولذلك تأتي اللفظة القرآنية في مكانها المناسب فمثلاً لفظة (فارغًا) لفظة مصورة، وجاءت معبرة في تصوير حزن أم موسى على وليدها فهي لا تفكر إلا فيه، فهي مصورة لعاطفة الأمومة، فلا يشغل قلبها إلا هو، وهو تصوير لحالتها النفسية، ولا يمكن لأي لفظة.

٣. من خلال التأمل في نظم السورتين تبين العناية بضمير موسى –عليه السلام–؛ لأنه مركز القصة ففي سورة القصص ﴿لِأُخْتِهِۦ﴾ ، و﴿قُصِّيهِ﴾ ، و﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ ، وفي سورة طه ﴿أُخْتُكَ﴾، و﴿فَرَجَعْنَاكَ﴾، و﴿أُمِّكَ﴾ – والله أعلم–.

٤. بينت لنا القصة أن آية واحدة حوت إيجازاً بليغاً؛ وذلك لاشتمالها على أمرين، ونهيين، وخبرين، متضمنين بشارتين، وهي قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، ولا عجب، فالقرآن الكريم بهر العقول بإعجازه ، وحار فيه أساطين البلاغة.

٥. في قصة أم موسى في السورتين اتضح أنه ليس هناك تكرار، بل تلوين في العرض، وطرق الأداء، وساعد على إبرازها أساليب بلاغية منوعة، وهذا من إعجاز القرآن وتحديه.

٦. المرأة مكرمة وعزيزة في القصص القرآني، ولها دورها الفاعل، فقد حظيت بالإكرام الذي ما بعده إكرام، فامرأ ة فرعون كان لها دور بارز في إنقاذ موسى من فرعون.

٧. في قصه أم موسى هناك دور بارز للفاء الفصيحة، من خلال الربط بين المشاهد، وتحقيق الانسجام بينها، دون أن يشعر قارئ النص بتلك المحذوفات.

٨. تبين لنا أن العناصر الفنية التي تتميز بها القصة من أحداث، وأشخاص، وغيرها، لا نجدها مجتمعة في القصة القرآنية، بل العنصر يكون بارزا إذا كان الموقف يتطلب حضوره، فمثلاً أم موسى حاضرة في عدة مواضع ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ﴾ ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ ﴾ ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ ﴾ نجد أم موسى في أبهى مشاعرها بالأمومة من إرضاعه، إلى إلقائه في البحر، وتوكيل الله وعدم الخوف، ثم أمرها لأخته بالبحث عنه، إلى حين عودته لها. فالقصة القرآنية نسيج وحدها، فهي ممتزجة بموضوع السورة امتزاجاً، وملتحمة في بنائها، ويقتصر منها على ما يناسب المقام.

٩. كشفت لنا القصة أن اللطف في الخطاب له تأثيره البارز، فأخت موسى خاطبت حاشية فرعون بلطف؛ حرصاً منها على سلامة أخيها، كما لاحظنا اللطف في خطاب امرأة فرعون لفرعون، حين قالت ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ وأخته حين قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ ، حرصاً منها على سلامة أخيها، وخوفاً عليه من القتل من قبل فرعون، وهو أسلوب دعوي أمر به موسى – عليه السلام– مع أعتى الطغاة وهو فرعون ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾.

١٠. بينت لنا القصة أن أم موسى خافت على ولدها خوفاً حقيقياً، ليس مبناه الظن، وإنما مبناه الواقع الذي تراه كل يوم، من ذبح الأطفال، لذلك أرشدها الله –سبحانه– إلى قرار فيه نجاته، فقال: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ ، والمرء في ظل حالات القلق والخوف يحتاج إلى من يرشده، ويدله على القرار المناسب.

١١. استعمال الجملة الاسمية المؤكدة في مواطن الدلالة على إرادة زيادة الاطمئنان، وتثبيت المعاني، كما كان في الوعد والبشارة ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فنجاه الله وعاد إليها.

١٢. أن الخوف الطبيعي لا حرج فيه، ولا يقدح في إيمان المؤمن، ولا يمنعه من العمل بالأسباب، فأم موسى خافت على وليدها، رغم أن الله طمأنها بعودته، ومع ذلك فقد طلبت من أخته متابعته، فالمؤمن لا يهمل فعل الأسباب، ولا ينافي ذلك إيمانه بالقضاء والقدر.

١٣. لاحظنا الدقة في التعبير حسب المناسبة والسياق، ففي سورة "القصص" جاء لفظ الإلقاء، في حين سورة "طه" جاء التعبير بالقذف الذي يتطلب السرعة، ولذلك اختلف التعبير في السورتين ؛ ليناسب كل حالة، ففي سورة "القصص" التهيئة والإعداد، وفي سورة "طه" جاء التنفيذ.

١٤. يأتي التعبير في القرآن بألفاظ يظن أنها متقاربة، ولكن عند التأمل يتبين أن كل معنى مختص بخصيصة ليست للآخر، كلفظ الخوف والحزن، فالخوف غم يصيب الإنسان لأمر مستقبل، في حين أن الحزن يصيبه لأمر قد وقع.

١٥. بينت لنا القصة أن موسى –عليه السلام– كان سبباً في حزن فرعون؛ لذلك جاء المجاز العقلي في قوله –تعالى–: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ مبالغة في سببيته لحزنهم؛ لأنه لم يكن الداعي لالتقاطه أن يكون لهم عدواً وحزنا، وإنما التبني والنفع المرتجى منه إذا كبر، ولا شك أن من يسعى في تربيته والعناية به، ثم يكون هلاكه على يديه يزيد من همه وحزنه.

١٦. بينت القصة الحمق والسفاهة لفرعون وقومه، فقد قتلوا أطفالاً ضعفاء لا ذنب لهم، ولما جاء موسى لم يقتلوه، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، ولم ينفعهم الحذر؛ لأن الخطأ ديدنهم ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا

خَٰطِـِٔينَ﴾ ، فجاء التعبير بالجملة الاسمية التي تفيد الثبوت، وأنه سمة من سماتهم.

١٧. كشفت لنا القصة أن المزاوجة بين الجملة الاسمية، والجملة الفعلية، يسهم في فهم النص ودلالاته، فالتعبير بقوله ﴿يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ﴾ ، وقوله ﴿وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ له دلالته المعبرة، فالاسمية تفيد الثبوت، بعكس الفعلية التي تفيد التجدد، وفرق بين النصح له والكفالة؛ لذلك جاء التعبير مختلفاً بين الجملتين.

١٨. يتبين لنا من القصة أنه يجوز التورية في الكلام للتخلص من المواقف التي يخشى فيها الضرر والأذى، دون اللجوء إلى الكذب، فعندما شكوا في كلام أخت موسى –عليه السلام– كما حكى القرآن الكريم ﴿وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾، فأولته على النصح لفرعون وليس لموسى –عليه السلام– كما ذكره المفسرون.

١٩. بينت لنا القصة أن موسى –عليه السلام– عاد إلى أمه؛ لكي تقر عينها فتحققت البشارة الأولى؛ وعندما اكتمل نضجه تحققت البشارة الثانية، وهي جعله ﴿مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، وقد وعدها الله من قبل فتحقق الوعد؛ لأن الله يجازي المحسنين على إحسانهم، وهي سنة لا تتخلف.

والحمد لله رب العالمين

المصادر، والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- أسرار التكرار، لمحمد بن حمزة الكرماني، المحقق: عبدالقادر عطا، دار الفضيلة.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- إعجاز القرآن، محمد بن الطيب الباقلاني، المحقق: أحمد صقر، دار المعارف، مصر.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، د.مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٠ - ١٩٩١م.
- إعراب القرآن وبيانه، محي الدين الدرويش، دار ابن كثير، دمشق ط: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- إعراب القرآن، قاسم حميدان دعاس، دار المنير، دمشق، ١٤٢٥.
- الأهداف التربوية في القصص القرآني، مدهش علي خالد أحمد، جامعة أم القرى، كلية التربية، ١٤٠٩هـ.
- البحر المحيط في التفسير، لمحمد بن يوسف، الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- بحوث في قصص القرآن، عبدالحافظ عبدربه، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٧٧م.
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، محمد الطيب النجار، ط٢، الرياض، مكتبة المعارف، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري، تحقيق د. حفني محمد شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي، دار النشر منشورات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الجمهورية العربية المتحدة.
- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، تونس، الدار التونسية للنشر، والجزائر، دار الكتاب العربي، ١٩٨٤م.
- التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن محمد بن جزي الكلبي الغرناطي المالكي.
- التعبير الفني في القرآن، بكري شيخ أمين، ط٢، بيروت، دار الشروق، ١٩٧٦م.
- التعبير القرآني والدلالات النفسية، د.عبدالله محمد الجيوسي، دار الغوثاني للدراسات القرآنية.

- تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل في تفسير القرآن، للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، إعداد وتحقيق خالد عبدالرحمن العك مروان، دار المعرفة – بيروت، ط الثالثة، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
- تفسير البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد الشيرازي البيضاوي، دار الفكر، بيروت.
- تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل للإمام علاء الدين علي بن محمد البغدادي، المعروف بالخازن، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
- تفسير الشعراوي، الناشر دار أخبار اليوم.
- تفسير الشيخ عبدالرحمن السعدي (تيسير الرحمن في تفسير كلام المنان) للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: محمد زهري النجار، الرياض، الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية، والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٤٠٤هـ.
- تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، دار الفكر، ط: الثانية، ١٣٩٨ هـ – ١٩٨٧م.
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، بيروت، دار المعرفة، ١٩٨٥م.
- التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي.
- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، ط٣، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ.
- تفسير الكشاف، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، ج٢، بيروت، دار المعرفة، د. ت.
- تفسير المراغي، أحمد مصطفي المراغي، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط: الأولى، ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م.
- التفسير الواضح، د. محمد محمود حجازي، دار الجيل، مطبعة الاستقلال الكبرى، القاهرة، ط: الرابعة ، ١٣٨٨ – ١٩٦٨م.
- التفسير الوسيط، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٢.
- التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.
- تناسق الدرر في تناسب السور، للحافظ جلال الدين السيوطي، دراسة وتحقيق عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
- تهذيب المدارج عبدالمنعم العلي العزي، وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف، الإمارات المتحدة.
- جامع البيان، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، بيروت، دار المعرفة، ١٩٨٣م.
- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي، ط: الأولى، ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م.
- الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، تصنيف محمود صافي، دار الرشيد، دمشق، بيروت، مؤسسة الإيمان، بيروت – لبنان .

- جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية، المحقق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، دار العروبة، الكويت، ط٢، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
- جواهر الأدب، أحمد الهاشمي، ط١، بيروت، دار الفكر.
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبي، شهاب الدين أبي العباس بن يوسف بن محمد بن إبراهيم، ط١، بيروت، دار الكتب العليمة.
- دراسات وصور في آداب القصة، حسني نصار، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٧م.
- دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية، سليمان الطراونة، د. ن.، ١٩٩٢م.
- دلائل النظام، تأليف عبدالحميد الفراهي الهندي، المطبعة الحميدية، ١٣٨٨هـ.
- روائع الإعجاز الفني في القصص القرآني، محمود السيد حسن، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، ١٩٨٣م.
- روح البيان في تفسير القرآن للبروسوي، دار الفكر، بدون تاريخ.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط: الرابعة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- زاد المسير في علم التفسير، للإمام أبي الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، حققه محمد بن عبدالرحمن بن عبدالله، خرج أحاديثه السعيد بن بسيوني زغلول، بيروت، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
- السراج المنير، محمد بن أحمد الشربيني، دار الكتب العلمية، بيروت.
- سيكولوجية القصة في القرآن التهامي نقرة، الشركة التونسية، ١٩٧٤م.
- الشخصية في القصص القرآني (دراسة نصية نقدية تحليلية لشخوص مختارة)، خالد سليمان عبدالدولات، مؤسسة السنابل الحديثة جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٩٦م.
- شرح القاموس المسمى تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، محب الدين أبي الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الحنيفي، دار الفكر للطباعة والنشر.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط٤، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٧م.
- صفوة التفاسير محمد علي الصابوني، ط٤، بيروت، دار القرآن الكريم، ١٩٨٢م.
- عن اللغة والأدب والنقد، محمد أحمد العزب، بيروت، المركز العربي للثقافة والعلوم.
- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى زكريا الأنصاري، تحقيق: محمد الصابوني، ط١، بيروت، دار القرآن الكريم، ١٩٨٣م.
- فتح القدير بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، محمد علي محمد الشوكاني، بيروت، دار المعرفة.

- الفتوحات الإلهية، بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الحنفية، سليمان عمر العجلي الشافعي الشهير بالحمل، صححه وضبطه ووضحه وخرج آياته إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العربية، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ط٢، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٧م.
- قصص الأنبياء في القرآن الكريم، سميح عاطف الزين، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ودار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٠م.
- قصص الأنبياء، ابن كثير، تحقيق: حافظ برانق، القاهرة، دار الأنوار، ١٩٨٥م.
- القصص القرآني الكريم بين الآباء والأبناء، عماد زهير حافظ، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، ١٩٨٨م.
- القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، د. فضل عباس حسن، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان الأردن- ط الثانية، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- القصص القرآني بين المفسرين والقُصاص، قديماً وحديثاً، طه عبدالفتاح مقلد، د. ن، د.ت.
- القصص القرآني عرض أحداث وتحليل وقائع، صلاح الخالدي، ط١، بيروت، دار القلم.
- القصص القرآني منطوقه ومفهومه، عبدالكريم الخطيب، ط١، القاهرة، المكتبة السنية، ١٩٦٤م.
- القيم التربوية في القصص القرآني، سيد أحمد السيد طهطاوي، رسالة ماجستير، جامعة أسيوط، كلية التربية، ١٩٨٥م.
- لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين إبراهيم البغدادي الخازن، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٠م.
- اللباب في علوم الكتاب، للإمام المفسر أبي حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحلبي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، منشورات محمد بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.
- لسان العرب، ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم الإفريقي، ط٣، بيروت، دار الفكر.
- مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ط٦، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٧٨م.
- مجمع البيان في تفسير القرآن، للشيخ أبي علي الفضل بن حسن الطبرسي، دار المعرفة.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، دار عالم لكتب للطباعة والنشر، الرياض، ١٤١٢.
- محاضرات في الأدب والنقد، محمد عبدالمنعم خاطر، كلية التربية، جامعة طنطا، ١٩٨٢م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للقاضي أبي محمد عبدالحق بن غالب بن عطية، تحقيق المجلس العلمي بفاس، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
- مختار الصحاح، للشيخ الإمام محمد بن أبي بكر الرازي، عنى بترتيبه محمود خاطر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان.
- مدارج السالكين لابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٧٢م.

- المرأة في القصص القرآني (المجلد الأول)، أحمد محمد الشرقاوي، دار السلام، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.
- المرأة في القصص القرآني، هداب محمد أحمد الحاج حسين، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠٠٣م.
- المصباح المنير، أحمد بن محمد المقري الفيومي، دار الكتب العلمية – لبنان.
- مع الأنبياء في القرآن الكريم قصص ودروس وعبر من حياتهم، عفيف عبدالفتاح طبارة، ط١٥، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٥م.
- مع قصص السابقين في القرآن، صلاح عبدالفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٨٨م.
- معارج التفكر ودقائق التدبر، عبدالرحمن الميداني، دار القلم، دمشق.
- معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، ط١، بيروت، عالم الكتب، ١٩٨٨م.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، ت: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.
- المعجزة الكبرى القرآن، محمد أبو زهرة، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٠م.
- المعجم الأدبي، جيور عبدالنور، ط١، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٩م.
- المعجم الوسيط (إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبدالقادر، محمد النجار) أشرف على طبعه عبدالسلام هارون، ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت.
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، بيروت، دار المعرفة.
- من بلاغة القرآن، أحمد بدوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام المفسر برهان الدين أبي الحسين إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الأندلس للنشر والتوزيع – جدة، ط: الثانية، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
- النفحات المكية في تفسير كتاب رب البرية، محمد بن صالح الشاوي، العبيكان ١٤٣٩هـ.
- النكت والعيون للماوردي، تحقيق: خصر محمد خضر، راجعه: عبدالستار أبو غدَّة، الكويت، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، التراث الإسلامي، ١٩٨٢م.